حذاء السندريلا المفقود

وفاء بوبغي

حذاء السندريلا

المفقود

رواية قصيرة

وفاء بوبغي

تصميم الغلاف :_ وفاء بوبغي

الإيمايل : wafaaboubghi@gmail.com

سنة الإصدار : 2025

كن قويا... كن طموحا...كن صبورا... كن ذا قيم نبيلة ...ستكون الأفضل

إهـــــــــــداء

" الأم هي كل شيء في هذه الحياة، هي التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف، هي ينبوع الحنان والرأفة والشفقة والغفران، فالذي يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه، ويداً تباركه، وعيناً تحرسه"

جبران خليل جبران

إلى

كل أم حكيمة وقوية

تساند بناتها وأبنائها في السراء والكرب

إلى كل من تحي الأمل في دواخلنا

إلى كل من تؤمن أن

لكل أنثى حذاء سحري

خاص بها

أهدي هذه المحاولة الأدبية

(01)

- **هل حذاء السندريلا السحري لا يزال في عالمنا؟**

لن يمحى من ذاكرتي هذا السؤال الغريب الذي طرحته علياء الصغيرة على أمي ببراءة شديدة، لترتسم ابتسامة قصيرة على شفاه أمي ثم همست لها بإجابة أغرب من الخيال:

- **أجل يا زمردتي.**

ازداد الحماس أكثر عند آخر العنقود لعائلتنا، ففردت شعرها الذهبي المتموج بغرور، ثم قالت بثقة كبيرة:

- **إذن، مادام موجودا، فأنا الأحق به، لأنني الأجمل... والأجمل حتى من السندريلا، أليس كذلك يا أمي؟**

جحظت عيني السيدة حكيمة بذهول من العبارات المتعجرفة المنبعثة من ثغر طفلتها التي لم تتجاوز بعد ثمان سنوات وشل معه لسانها عن الكلام، لكن علياء الصغيرة أبت الاستسلام، فكررت سؤالها من جديد:

- **أليس كذلك يا أمي؟!**

شعرت السيدة حكيمة بالاستياء من أسلوب طفلتها المستفز وبالخوف من أن تدمر نفسها بهذا التفكير الأناني، ولكن رغم ذلك، حاولت قدر المستطاع أن تخفي تلك المشاعر عنها حتى لا تحطم قلبها الصغير وقالت: بالطبع، يا حلوتي...ولكن الجمال غير كاف لتمييزه عن بقية الأحذية الأخرى.

ازداد هوس علياء بالحذاء السحري، فسألت من جديد: وهل له شكل أو لون معين يا أمي؟

فأردفت السيدة حكيمة بغموض: بالتحلي بالصبر والحكمة يا حلوتي.

هذه الإجابة جعلت علياء تحدق فينا ببراءة وهي تردد بصوتها الصغير: الحكمة...الدهاء...ما هذه المصطلحات غريبة...لم أفهم شيئا يا أمي.

فابتسمت السيدة حكيمة من ردة فعلها، ثم همست إليها: سوف تفهمين كل شيء، عندما تكبرين،

وبشكل مفاجئ، استدارت أمي نحوي وسألتني وهي باسمة: وماذا عنك يا فائزة؟ ألا تريدين أنت أيضا هذا الحذاء" فاكتفيت بهز رأسي بالنفي.

بعد انقضاء سنوات، صرنا نحن الزهرتين اللتين تعطران بيتنا الدافئ، وكلما عدنا بالزمن للوراء، إلا وذكرتنا أمي والابتسامة على ثغرها الصغير بحذاء السندريلا المفقود، فتعتلي تعابير الغرور وجه علياء المستدير، وهي تتأمل نفسها بالمرآة وعيناها تبرقان وتقولان: " قريبا سأنتعله، يا أمي" في حين لذت بالصمت، لأنني كنت ألمح في حديث أمي لغزا مبهما، وأنا لست من هواة فك الألغاز.

كنت الفتاة الكبرى العاقلة لعائلة غنية، كان أبي تاجرا مغمورا في بيع الأقمشة الفاخرة في حي الأحباس العريق بمدينة الدار البيضاء، وصل صدى سمعته المهيبة كل الجهات الأربع من الوطن، و كانت أمي الملكة في منزلنا الفخم الكائن بحي راق يسمى بحي بوسيجور، فكنا نحن عالمها الوحيد، نلت شهادة الإجازة في اللغة الألمانية بميزة مشرف من أعرق الجامعات بمدينة الدارالبيضاء ثم ديبلوم من أفضل معاهد الصحافة بمدينة الرباط، لم يكن العمل هاجسي لاقتحام هذا الميدان، بل هو حب التحري وعشق القلم، في آخر سنة لي بمعهد الصحافة، التقيت بصلاح أرلان، كان يكبرني بثلاث سنوات، وهو قادم من مدينة صغيرة تسمى برشيد، حاملا معه أحلامه ومتحديا ظروف الفقر والحرمان التي تعيشه أسرته، اختلفنا في الطبائع وجمعنا الحب، لم تستمر فترة التعارف بيننا إلا مدة قصيرة، وفي عيد الحب من هذه السنة، فاجأني وهو يجثو على قدميه بشكل رومانسي ليقدم لي خاتم الخطوبة أمام كل طلبة وطالبات المعهد، لن تمحى من ذاكرتي هذه اللحظة الأسطورية، وأتمم ذلك بأن جاء ليطلبني بشكل رسمي من عائلتي، انتقدت أمي قدومه بمفرده، فسألته عن والديه، فبدا مرتبكا وهو يخبرنا أن أمه متوفاة وأبوه رجل شيخ كبير، وأنه سيحضر خلال عقد قراننا، لم تستسغ أمي تصرفه غير اللائق، وظل وجهها متجهما طيلة تلك الجلسة العائلية معه، في حين اختارت علياء الانزواء بعيدا عنا بغرفتنا الضيقة.

رغم كل تعابير الاعتراض التي كانت تعتلي وجه أمي، إلا أن إصراري القوي عليه كان هو المنتصر، ليصبح صلاح أرلان واحد من أفراد عائلتنا، وزاد تعلقي به أكثر عند اختياره لأن يكون تاريخ عقد زفافنا هو نفس تاريخ عيد ميلادي الثامن والعشرين.

وبين ليلة وضحاها، تغير كل شيء، لا زلت أتذكر تلك الليلة السوداء، كنا بغرفة المعيشة ننتظر أبي على مائدة العشاء المستديرة، لتقتحم خلوتنا الهادئة العاملة المنزلية ذات الجنسية الفليبينية وهي تقول والرعب يتملك كل أطرافها: الشرطة... الشرطة بالباب يا سيدتي.

قفزت أمي من كرسيها والارتباك يسيطر على كل حركة من حركاتها، كأن هناك شيء خطير تخفيه عنا، فطلبت من العاملة المنزلية أن تماطل رجال الشرطة قليلا، ثم رفعت سماعة الهاتف، تحاول إجراء اتصالا هاتفيا سريعا، وما أن أدارت رقمين حتى سمعنا أصوات أقدام كثيرة وغاضبة تخترق علينا غرفة المعيشة، كانا رجلين ضخمي البنية يحيط بهما مجموعة من الرجال بزي الأمن

الوطني، اقترب أحدهما من أمي ونزع عنوة سماعة الهاتف من يدها، ثم خاطبها بنبرة قاسية: لقد تأخر الوقت عن إنذار ذلك المحتال يا امرأة.

خطاب عنيف ولغة لم نعتدها يوما، أربكت السيدة حكيمة الدرقاوي حتى صارت يداها ترتجفان بشدة، وعندما رأت الخوف بعيوننا حاولت التحلي بالقوة، لكن عينيها الزمردتين الساحرتين كانت فاضحتين لها، فأجابت المحقق بنبرة تعيسة: كنت أريد فقط الاتصال بزوجي حتى أعلمه بمجيئكم يا سيدي.

تمعنها المحقق بعينين شريرتين، ثم رماها بنظرات كلها ريبة وهو يقول بنبرة ساخرة: لا يمكنه ذلك، فزوجك المحتال حاليا وراء القضبان؟!

انتبه المحقق الثاني لسلوك زميله العنيف، فتدخل يهدئ الأجواء المشحونة: نحن هنا من أجل إتمام عملية تفتيش المنزل وأخذ إفادتكن حول عمليات النصب المتعددة للسيد محمد الدرقاوي.

ما أن أنهى حديثه حتى انطلق رجال الشرطة في تفتيش كل زاوية من زاويا منزلنا الواسع، ومن هول الصدمة غرقت أمي على أحد الكراسي الضخمة، وشعرت واختي علياء بالفزع، كأننا نعيش في مشهد رعب، واندهشنا من صمت أمي الرهيب، فهي لم تدافع عن سمعة أبي ولو بكلمة واحدة، ولم تقم بواجبها كما يفعل باقي الزوجات المخلصات.

في الوقت الذي تمكنت فيه من السيطرة على أعصابي، انفجرت علياء بهستيرية في وجه المحققان: إن أبي ليس بمحتال يا سيدي، ثم أحاطت بكلتا يديها بالكرسي الضخم الذي يحمل جسد أمي المنهك وخاطبتها بتوسل: أرجوك يا أمي، إنه ليس الوقت المناسب لكي تصمتي، بالله عليك أخبريهما أن أبي ليس بمحتال...

لم تحرك أمي ساكنا وظلت شاردة بعيدا عنا في عالم آخر، فأضافت علياء وهي تتوسل هذه المرة تحت قدميها: أرجوك أخبريهما أن أبي رجل نزيه...لماذا تصمتين؟ (ثم انهارت باكية)

ذلك الصمت الرهيب لأمي في تلك اللحظة الحاسمة من حياتنا، جعل تلك الصورة الجميلة التي بخيالي عن أبي تتلاشى، لأغوص في دوامة من الأفكار السوداوية عنه، لم أتخيل ان يأت يوما، وأكتشف أن كل ما كان يرويه لنا عن العقبات التي عاشها في بدايات حياته ليست إلا أساطير مروية، ولا زلت لم أستوعب بعد أن القدوة الأعلى لي ما هو إلا رجل مخادع.

وبعد أيام معدودة ثم الحكم على السيد محمد الدرقاوي بسنة واحدة نافذة مع الحجز على كل ممتلكاته، وبعد توسلات أمي، تنازل الأطراف المشتكية عن القضية في الفترة الاستئنافية للحكم، فتحرر السيد محمد الدرقاوي، لكن الحجز على الممتلكات ظل ساري المفعول، فتم بيع المأوى الدافئ الذي يحوي ذكرياتنا السعيدة في المزاد العلني، وأيضا العمارة الوحيدة التي تدر علينا مداخيل مهمة من كراءها، وحتى المحل التجاري الذي كان يملكه أبي في حي الأحباس.

في لحظة تهور قاتل من أبي، ها نحن كالمتشردين بدون مأوى ومدخول كريم، تنكر الكل لنا، ما عدا القلة القليلة، لكن تلك الإعانات البسيطة نفذت كسرعة البرق، لتجد أمي نفسها وحيدة، تحمل هما تقيلا، فمن جهة، هناك رجل ستيني في حالة اكتئاب حادة أفقده بشكل مؤقت لغة الكلام والحركة، ومن جهة أخرى، هناك فتاتان في عمر الزهور في حالة صدمة، كانت الأمنية الوحيدة لأمي هي أن نطوي هذا الملف بشكل نهائي، وأن لا نسأل عن شيء مضى، أو نحاسب أحد ونحن لا نعلم نواياه، وأن نترك أبي في عزلته يداوي جراحه الغائرة، فيكفي أنه فقد كل ما بناه، لم نخبر أخي الوحيد بالفضيحة حتى لا نقلقه معنا، وهو يؤدي مهمة رسمية مع الجيش المغربي لحفظ الأمن في جمهورية البنما.

وما بين إيجار وإيجار، لم يتبقى لنا إلا القليل من المال الذي لن يكفي حتى لعلاج أبي المصاب نفسيا وجسديا، مما اضطر أمي على عرض ما تبقى من مجوهراتها على الجواهري، بعد ذلك استأجرنا شقة على سطوح أحد العمارات البالية في أحد الأزقة الشعيبة بمنطقة عين الشق، لم تتعدى مساحة الشقة الخمسين مترا، ضمت غرفتين ضيقتين مظلمتين وغرفة معيشة متسخة الجدران ومطبخ وحمام ضيق.

لن أنكر أن هذا التغير الفجائي كان صادما لنا، خاصة لأختي علياء التي أبت التأقلم مع هذه الحياة الجديدة، وفي مرات عدة، كنت أجدها تدخل في نقاشات حادة مع أمي، لم تكن علياء تشبهني إلا بالبشرة الناصعة البياض التي ورثناها من أمي، وكانت تتفرد عني بعينيها الواسعتين الزمردتين الساحرتين وبقامتها المهيبة وبجسمها الرياضي المنحوت وبعشقها للزينة وحياة الترف والمظاهر الخادعة، حتى أنها كانت معتادة على اقتناء أغلى الماركات العالمية وارتياد السهرات الصاخبة، لم يكن التفوق الدراسي غاية لها، فبصعوبة وتحت ضغط من أمي، أنهت المرحلة الثانوية بعد سنتين من الفشل المتكرر بميزة مقبول، لهذا أبت هذه الروح المتمردة والناقمة التي تستوطنها، على التأقلم على غرفة ضيقة لا تمت للحياة التي تريدها بأي صلة.

بعد ثلاثة أشهر بدأ الإنهاك النفسي والجسدي يسيطر على جسد أمي النحيل، فجأة، صارت تبدو أكبر من عمرها البيولوجي، خاصة وأن جل وقتها تقضيه بالمطبخ منغمسة في إعداد الحلويات والفطائر المغربية لزبوناتها العاملات، وبين الفينة والأخرى، كانت ترمي لنا علياء بعض الفتات من أجرتها الشهرية، حيث كانت تعمل كمدربة رقص شرقي بالفترة الصباحية ومزينة نسائية بأحد الصالونات بالفترة المسائية.

في حين لم أتوفق في نيل أي وظيفة، رغم البحث الشاق والمرير، وكنت دائما أواجه بتلك الابتسامات المزيفة من المسؤول (ة) المكلف(ة) باستقبال السير الذاتية، وتتكرر على مسامعي نفس العبارة " سوف نتصل بك في أقرب الآجال يا آنسة فائزة".

يا له من أمر غريب؟! لم أنل حظا من هذا اللقب الذي اختاره لي أبي، وهو الذي كان يتمناه فأل خير لي في حياتي.

يمر بنا الوقت سريعا، وتصبح الحياة أقسى على أمي، أمي المرأة الصابرة، التي لم تشتكي يوما، بل إنها كانت في أشد ازماتنا كذلك العازل الذي يحمينا من الخطر، فكلما عدت بخيبتي وتلمح ذلك بعيني، إلا وتعانقني وهي تهمس لي بكلمات طيبة.

أعترف أنني فاشلة، للآن دفعت لحوالي خمسين مجلة وجريدة، سواء كانت مغمورة أو غير مغمورة بمدينتي العملاقة أو مدينة الفرص الذهبية كما يلقبها الوافدون إليها، كان لي أمل أن تبتسم لي أيضا وتهديني فرصة واحدة.

بدأت الشمس بالمغيب، وعقارب الساعة بمعصمي تشير إلى السابعة مساء، عندما توقفت بي سيارة الأجرة الصغيرة بالحي التي أقطنه، دفعت الأجرة، ونزلت منها، فإذا بي ألمح مجموعة من الجارات الفضوليات بالقرب من باب عمارتنا، يتجسسن على شيء مريب هناك، فهرولت بخطى سريعة، وما أن دنوت منهن، حتى زمجرت إحداهن بنبرة ساخطة: الحي أصبح موبوء، لن نسكت على هذه الفضائح... بنات كلب... لا دين وَ لا أخلاق.

وأضافت امرأة أخرى بنبرة ناقمة: هذا مصير كل بيت لا يوجد رجل فيه...الله يستر على بناتنا.

لم تأت تلك التعاليق الخبيئة بمحض الصدفة، فقد كان هناك أصوات شجار عنيف قادمة من أعلى قمة بالعمارة، كانت أصواتا مألوفة لي، فولجت العمارة متجاهلة تلك الأحاديث السامة، أسرع بخطواتي على سلالم ضيقة ومظلمة أسقط ثم أنهض، كلما دنوت أكثر فأكثر من شقتنا التي تقع بالطابق الرابع، إلا والأصوات تصبح أوضح وأقوى، وصلت لباب شقتنا وأنا ألهث من التعب، ورغم ذلك كان هناك قوة داخلية دفعتها لأقتحمها دون إشعار أحد، لأتفاجأ بعلياء شبه عارية، بفستانها الأحمر القصير، الذي يبرز كل مفاتنها، وبتبرجها اللافت والمستفز للأنظار الوقورة، ووجهها الملطخ بمكياج كثيف جدا، أضاف سنوات عديدة لعمرها الحقيقي، حتى لون شعرها المتموج غيرته من الذهبي للأحمر الفاقع، كانت شامخة على حذاء ذو كعب عال، أضاف إلى طولها طولا أكثر، تنبع منها روائح أنثوية مغرية، توحي لمن يجهلها أنها مثل إحدى الباحثات عن صيد ثمين في الليالي الحمراء، ما ان انتبهت أمي لوجودي، حتى استنجدت بي قائلة: بالله عليك، انصحي هذه الحمقاء أن تكف آداها عنا، ستفضحنا أمام الجيران وفي الحي كله.

غاب الحياء عن علياء، وحل العصيان والتمرد في كل حركاتها وتفاصيل مظهرها الجديد، وبتحد وضعت الحقيبة الصغيرة ذات الماركة الغالية على دراعها الأيسر، وقالت بنبرة وقحة: هذه حياتي، أعيشها كما أريد، لا يهمني رأي هؤلاء الفقراء الذين يجاورننا.

تلك الوقاحة المستفزة التي تنبعث منها، والتمرد المفاجئ منها على قيم ومبادئ تربينا عليها، جعلتني أفقد أعصابي، ولا أشعر بنفسي إلا وأنا أرسم بصفعة قوية على خدها الأيمن، غضبت بشدة وهي تلامس خدها الملتهب، وبقوة دفعتي إلى الخلف حتى سقطت أرضا، متناسية أنني الأخت الكبرى، وبدون أدنى احترام خاطبتني بغضب: ألا يكفي أنك عالة على هذا الجحر الضيق، أربعة أشهر ونحن نعيلك وتجرئين على تشويه وجهي، أعلم أنك تغارين مني أيتها القبيحة الفاشلة.
لم أتوقع يوما أن أسمع مثل هذه الكلمات النابية من علياء، ولن أنكر أن القساوة التي طبعت نبرة صوتها قد جرحتني، حتى فقدت القدرة على التعبير، خاصة وأنها آتية من أقرب شخصي لقلبي، وعدت للحقيقة التي لا مفر منها، فنصف الحديث الذي وجهته لي فيه جانب كبير من الصواب.

تنبهت أمي للخيبة المرتسمة في عيني، فدفعتها بقوة باتجاه باب الشقة وهي تخاطبها بقسوة: أيتها العاقة الملعونة، لم تحترم أختك الكبرى، ولم تهتمي حتى بحالة والدك المحرجة؟! أتريدين فضحنا وفضح والدك المريض؟! أتريدين حضور جنازته في القريب العاجل؟؟
ضحكت علياء بمرارة، وأجابت: أفضحه!! أفضح من؟! أذلك المحتال المختبئ في حجره.
غضبت أمي بشدة، فصرخت فيها: أنت لست ابنتي، أنت شيطانة وبائعة هوى ليس إلا.
زمجرت علياء بسخط وقالت وهي تدافع عن نفسها: أنا لست بائعة هوى، أنا فنانة استعراضية، يا سيدة حكيمة الدرقاوي.
لتردف أمي هذه المرة بقسوة: وما الفرق؟! إذا كنت تعرضين جسدك بابتذال للمخمورين في العلب الليلية، لو كنت أعلم أن هذا مصدر رزقك ما أخذت منك فلسا واحد... إذا خرجت من هنا... فليكن للأبد.
ما أن أنهت أمي حديثها، حتى اصفر وجه علياء واغرورقت عينيها وهي تهمس بنبرة منكسرة: أتطردينني يا أمي، أتطردينني من المنزل ...هذا الأمر ليس بغريب عليك، فأنت دائما تفضلينها علي... (وأضافت بصوت هامس) لن أعود أبدا... أبدا... إلا إذا..
تلك التعابير التعيسة التي يعكسها وجهها الدائري الصغير، أثرت في نفسي كخنجر يخترق قلبي، ورغم إهانتها لي، كنت أرغب أن أثنيها عن الرحيل، لكن نظرات أمي المحذرة أمي منعتني، لتختفي علياء من المكان ومن حياتنا كلها، كانت كل حركاتها ونظراتها نحونا وهي تغادرنا توحي بأنها المرة الأخيرة التي سوف نراها
كان صدى صوت انغلاق الباب غريبا هذه المرة، فانهارت أمي أرضا، تفيض من عينيها دموع غزيرة، فنزلت عندها حتى أواسيها، فتعانقنا وبكينا، في تلك اللحظة، تلاشت لغة الكلام وحلت لغة المشاعر، لم نعي بما حولنا إلا بعد سماع صرير باب إحدى الغرف يفتح،

فتوجهنا بنظرنا نحو الغرفة المعلومة، كان أبي يظل بجلبابه الأبيض، وشعره الأبيض الناعم، وجسده النحيل ووجه الشاحب المكتئب، ولحيته البيضاء القصيرة، التي تبرز بشكل واضح تفاصل عنقه المترهل، يسند نفسه بصعوبة على عكازيه الحديدتين، متسمرا في مكانه وهو يتأملنا بعينين تعيستين، كل شيء يوحي بأن الرجل كان واعيا بكل ما دار في هذا المساء، بقي لفترة قصيرة، ثم انصرف من جديد لخلوته الخاصة، فهلعت أمي عليه، فنهضت مسرعة إليه وهي تولول قائلة: يبدو أن والدك سمع كل شيء، أخشى أن يصاب بنكسة جديدة، وهو لايزال في المراحل الأولى من تعافيه.

لم أفكر يوما باقتحام زاويته الخاصة طيلة الشهور الماضية، ففعلته الشنعاء أسقطته من عيني، ليصبح بالنسبة لي مجرد رجل اسمه محمد الدرقاوي.

كانت هذه اللحظات من أقسى ما يمكن أن يمر به المرء في حياته، ففي كل لحظة تمر بنا، نفقد الأشياء الجميلة، بالأمس، سقط من عيني أبي الذي كان القدوة لي، وها أنا اليوم أفقد أختي علياء التي تبقى أروع ما أنجبته لي هذه الحياة بكل عيوبها الكثيرة.

(02)

انقضى شهر على فراق علياء، وخلال هذه المدة التي مضت، لم أفكر لحظة بتفقد آثر الغالية، خاصة بعد تأدية القسم لأمي، وحتى لو وددت فعل ذلك خفية عنها، فأنا لم أكن أملك تلك القوة النفسية التي تسمح لي بالتحري عنها في الأوكار المجهولة، نفذت أوامر أمي بحذافيرها حتى صار التلفظ باسمها من المحرمات في بيتنا.

كانت الحالة الصحية لأبي في تحسن مستمر، كنت أعلم أخباره مجبرة من أمي، التي لم تتوانى عن الحديث عنه في كل لحظة تجمعنا.

واصلت أمي في ذاك العمل المنزلي البسيط، الذي لم يحقق لنا إلا الكفاف من الرزق، ولم تتوانى عن تقديم الدعم لي حتى أمضي لنيل ما أستحق من هذه الحياة، وبفضلها لم أستسلم، حيث كنت في الفترة الصباحية أنتقل بين مختلف المؤسسات الإعلامية المختلفة وبين المدارس الخاصة لتقديم سيرتي الذاتية للمناصب الفارغة فيها، وكنت بالفترة المسائية أساعدها في إعداد طلبيات الزبونات.

بعد نهاية يوم شاق، انزويت كالعادة بغرفتي، أنشد الراحة لجسدي المنهك، وقبل أن أتمدد على السرير، فإذا بي أمي تناديني: اتصال لك يا عزيزتي، هيا... تعالي بسرعة.

تركت كل شيء خلفي، وهرولت ملبية النداء، فأعطتني الهاتف الخاص بي وهي مبتسمة، وقبل أن أنطق بأي كلمة عبر سماعته، فإذا بصوت مألوف يخاطبني بنبرة مازحة: أخيرا أجبت على هاتفك، يا آنسة كأبة.

كان هناك شخص واحد من يطلق علي هذا اللقب، إنها أعز صديقة لي في المرحلة الجامعية، واسمها نرجس السلاوي، لم نلتقي منذ حوالي ثلاث سنوات، افترقنا بعد نيل الإجازة في دراسات اللغة الألمانية، لتتوقف المسيرة الجامعية في هذه المرحلة، لأبحر بعدها في دراسة مجال الصحافة، في حين اختارت صديقتها الاستقرار الأسري، كانت نرجس كالأميرات بالقصص العربية ،هيفاء وميادة القد، فاتنة بلون بشرتها القمحية الخالية من العيوب، وبتلك العينين العسليتين الواسعتين اللتين تغطيهما أهداب كثيفة، يعلو رأسها شعر أسود متموج كثيف يصل إلى خصرها، لكن جمالها الداخلي يطغى على كل شيء، فهي المنبع الذي كنت أستمد منه تلك الطاقة من التفاؤل والإيجابية، كان عشق اللغة الألمانية من وطد علاقتنا،

كنت حينئذ، خجولة بشكل غير طبيعي ودائمة العبوس، فلقبتني بالآنسة كآبة، لن أنسى فضلها في محو الكثير من الصفات القبيحة في شخصيتي،

ضحكت بصوت هامس عبر سماعة الهاتف وقلت غير مصدقة: نرجس السلاوي، أهذه أنت؟! لا أصدق... يا الله...

فقالت مازحة: إنها هي بشحمها ولحمها وطولها وعرضها.

فضحكنا معا، ثم قلت: يبدو أن السنوات لم تغير منك شيئا يا نرجس السلاوي، إنها فعلا مفاجأة لم أتوقعها في هذه الليلة الدافئة.

ضحكت نرجس من جديد، ثم سألت: أهي مفاجأة سارة أم قبيحة، يا آنسة كآبة؟

- **إنها أجمل هدية أتلقاها لهذه الليلة، أنا بأمس الحاجة للحديث بشكل مسترسل مع صديقة مقربة.**

وبنبرة متعبة، قالت: وأنا أيضا أحتاجك وبقوة، ما رأيك ان نلتقي مع العاشرة صباحا في نفس المكان.

- **حسنا، نلتقي هناك.**

كانت نرجس السلاوي تزورنا كثيرا في منزلنا القديم، حتى أصبحت تعتبر جزء من عائلتنا الصغيرة، كان آخر مرة شاهدتها فيه، في حفل زفافها التي نظمته في إحدى قاعات الأفراح الكبيرة، بعد زواجها التقليدي من أحد أقاربها وسفرها الفوري معه إلى لندن، وبعد ذلك، اختفت أخبارها عني.

غريبة هذه الحياة، يرحل أشخاص عنا ويعود آخرون لمواساتنا، هذا أعاد لذاكرتي ما قالته لي أمي في أحد الأيام، وهي ترسم ابتسامة باهتة على شفتيها: " كل ما يحدث في حياتنا ليس بمحض صدفة، فظهور الأشخاص أو حتى اختفائهم من حياتنا له دائما غاية، لن ندركها إلا بعد رحيلهم عنا، فإن كانوا أشرارا، فإننا سنتأذى كثيرا، فنتعلم الدروس والعبر، فننضج، وإن كانوا أخيارا، فإنهم سيغرسون فينا الحب والأمل، فنعطي بسخاء دون انتظار أي اعتراف بالجميل"

عدت للسرير الدافئ من جديد، لكن الأرق هذه المرة تغلب علي، فحملت الهاتف بين يدي، باحثة عن أي لعبة من اللعبة التي تسليني، وفي ظل بحثي، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أفتش بالأرقام القديمة، توقفت عند أحدها، كان رقما مميز لعابر مر بحياتي، واختفى منها كالشبح دون أن يترك أي آثر، كان ذلك العابر هو صلاح أرلان، أول رجل سميته حبيبي، كان آخر لقاء لنا، قبل وقوع الكارثة بيومين، حيث أخبرني بأنه عائد لمدينته لعدة أيام حتى يزور

والده المريض، عندما حلت بنا الكارثة ، لم يكن معي، ولم يتصل ولو مرة واحدة بعد أن غادر، اختفى بشكل كامل، قلقت عليه، فتجاهلت كل الظروف التي أعيشها، واتصلت هاتفيا، باحثة عن المواساة في هذه الفترة الصعبة من حياتي، لأتلقى صفعة قوية، حيث كانت العلبة الصوتية هي المجيب على كل اتصالاتي، لازلت أتذكر، حينئذ، وأنا أحكي لأمي وعلياء عن ما حصل معي، لتلوذ أمي بالصمت، ولو أن تلك النظرات المرتسمة على عينيها توحي بشيء آخر، كأنها تود أن تخبرني أنها سبق وحذرتني منه، لكن علياء لم تصمت، حيث قالت لي بنبرة مستهزئة : ألم تفهمي بعد أيتها الغبية؟ الأمر واضح...لقد حظرك ذلك الانتهازي، لابد أن هناك فاعل خير قد أخبره بأننا أصبحنا فقراء، ففر بجلده باحثا عن ضحية ساذجة أخرى تنتشله من فقره.

لا زلت أتذكر، أنني تجاهلت كل ما قيل لي حينها، و كنت كالحمقاء أفتش عن أي شيء يوصلني بحبيبي المفقود، سألت عنه كل زملائنا في المعهد، فلم يكن أي أحد منهم يعلم شيئا، لم أفهم حتى لما لم أفكر أن أساله عندما أصبحنا خطيبان عن عنوانه الشخصي، كان غامضا وكتوما جدا فيما يخص حياته الشخصية، وبعد كل محاولاتي الفاشلة، أصبت باكتئاب حاد، فطنت أمي لذلك، فانتزعت الهاتف مني بالقوة، وأجبرتني أن أؤدي القسم بالكف عن جلد نفسي، فوفيت شفويا بالعهد، لكن في داخلي مشاعر ملتهبة لهذا الرجل، جعلتني في تلك الفترة أضع له عدة مبررات واهية لغيابه.

جاء فصل جديد، إنه الصيف الملتهب، فيه يجتمع العشاق في القفص الذهبي، بينما كنت أعيش في فراغ عاطفي قاتل، حتى صار شيطاني يراودني عن نفسي وهو يعيدني لذكريات جميلة قضيتها مع ذلك الرجل كأنها وقعت بالأمس القريب، فلم أعي بنفسي إلا وأنا أتصل به، فإذا بي أسمع صوت رنين الهاتف، اهتز قلبي فرحا، وأخيرا سأسمع صوت حبيبي، انفتح الخط، فإذا بصوت أنثوي ينادي بنبرة ناعمة: هاتفك يرن، يا حبيبي.

ثم صوت من بعيد يخاطبها: حسنا، انا قادم، يا حلوتي.

إنه صوته الذي أميزه بين مئات الأصوات، وهي نفس عبارات الغزل التي اعتاد وصفي بي، وها هو ينعت بها امرأة أخرى، كانت مشاعري في لحظتها مزيجا من الخيبة والانكسار والغضب الشديد، فأنهيت المكالمة الهاتفية بسرعة، حتى لا أفقد عقلي، وضعت رأسي المتعب على الوسادة التي كانت شاهدة على أحزاني، ثم بكيت حتى اكتفيت، وبعد ذلك، دخلت في صراع مع نفسي " إنه يتلاعب بك وأنت ترفضين طرده من قلبك؟ لقد سمعت كل شيء

بأذنك... أليس هذا بكاف؟ لكن قلبي لا يصدق إلا إذا رأيت بعيني...ربما هو مجبر على فعل ذلك؟ لابد أنه له مبرر قوي.. "

أحسست بدوار من كثرة الفوضى المتصارعة بعقلي، وبدون تفكير، وجدت نفسي أتصل به جديد، لتجيبني هذه المرة العلبة الصوتية، في تلك اللحظة، بدأت أستوعب الحقيقة التي أعماني الحب عن رؤيتها، لقد حظرني، نعم لقد حظرني، كانت علياء محقة بشأنه، كان والدي الوحيد في صفي، أرادني أن أعيش التجربة بمساوئها وحسناتها، كان يظنني قوية أمام كل العقبات التي يمكن أن تصادفني، لكنه لم يعلم أن هذه التجربة كسرت أشياء بداخلي ومن أبرزها الثقة بالآخرين.

يوم جديد واستثنائي في حياتي، ارتديت أجمل الفساتين التي لدي، كان لونه سماوي ساحر يتناسب ودفئ هذا اليوم، ولففت شعري بحجاب من الحرير الممتاز باللونين السماوي والأبيض وقبعة من القش الصيفية، وارتديت حذاء رياضيا شديد البياض، ولم أضع إلا القليل من الزينة على وجهي حتى ألا أبدو شاحبة كالمومياء، وصلت في ميعادي إلى مقهى الطلبة القريب للجامعة، وهناك، لوحت لي إحدى السيدات بيدها، كانت تلك هي صديقتي نرجس وهي بكامل أناقتها، بقميصها الحريري المخطط، يجمع بين اللونين الزهري والأبيض متوسط الطول، فوق سروال أبيض من الجينز الواسع ذو ماركة جيدة، تزين وجهها بمكياج هادئ، أضاف لها جاذبية ساحرة مريحة، لم تتغير كثيرا، باستثناء الزيادة الطفيفة في وزنها، و شكل شعرها، الذي أصبح قصيرا جدا و كيرلي، كانت تجلس بنفس الطاولة التي اعتدنا الجلوس فيها، ما أن أقبلت عليها حتى نهضت من مكانها، ثم تعانقنا عناقا طويلا وبكينا فرحا.

بعد أن طلبنا مشروبنا المفضل، عدنا بشريط الذكريات للخلف وضحكنا على كل ما مر بنا، وبعد دقيقة من الصمت، اختفت البسمة من وجه نرجس، وهي تسرد بتأثر عن طلاق والديها المفاجئ، الذي حدث مباشرة بعد مرور شهر من زواجها، ثم الزواج السريع لأبيها من ابنة خاله المطلقة، وعن حياتها الزوجية التي لم تكن بمستوى أحلامها، وهي الفتاة العشرينية العاشقة للسفر والحالمة بالحب الأفلاطوني، وهو الرجل الأربعيني العقلاني الرتيب الذي عاش حياته طولا وعرضا قبل أن يفكر في الاستقرار، حتى كاد هذا اختلاف أن ينهي هذه العلاقة في الشهور الأولى لها، لولا تلك الصغيرة التي نمت في رحمها، لتعيد التفكير في حياتها من جديد، كان لابد من التنازلات والتضحيات، حتى تعيش طفلتها البريئة

في ظروف أسرية سليمة، كانت عينيها تشع فخرا وسعادة وهي تطلعني على صور ابنتها فجر على هاتفها المحمول، كأنه الإنجاز الوحيد الذي حققته، كانت بريئة و جميلة مثل أمها.

بعد أن أنهت من إفراغ ما في جعبتها، نظرت لي نظرات عميقة وقالت بنبرة مستسلمة: هذه حياتي التي لا أتمنى لأي أنثى حالمة أن تعيشها.

قلقت عليها، فسألت: ألست سعيدة؟!

ابتسمت ابتسامة باهتة، وأجابت بنبرة تبرز النضج الذي وصلت له: السعادة نسبية في الحياة وهي أنواع ودرجات، لكن تبقى ابنتي فجر هي السعادة الكبرى بالنسبة لي.

كانت حديثها فلسفيا يحتاج لتفكير عميق لتحليله، أحسست أنها تعمدت ذلك الرد، ففضلت عدم الخوض في أمر لا تريد الإفصاح عنه.

ما أن ارتشفت رشفتي الثانية من مشروبي المفضل حتى سألت: وماذا عنك؟ أتشوق لمعرفة كل شيء عنك.

لم تكن نرجس بالنسبة لي فقط تلك الصديقة المقربة لقلبي، بل كانت تلك الروح التي تمنحي طاقة القوة والتفاؤل، لم أعرف من أين سأبدأ حديثي، لكن أمام الهالة النورانية التي تحيط بها، وجدت نفسي احكي لها كل شيء، ماعدا قصة أختي علياء التي ليس من حقي ان أفشي أسرارها أمام أي أحد كيفما كان.

اعتلت ابتسامة باهتة وجه نرجس، وهي تقول: ظننت أن مصابي أعظم بكثير، لكن ما عشته وما أنت لا تزالين تمرين منه أصعب من أن تستحمله حتى الجبال.

فقلت بنبرة مستسلمة: إنه قدري الذي لا مفر منه.

تنهدت بشكل عميق وأردفت: ويا له من قدر عجيب؟! إنني أغبطك على صبرك القوي يا صديقتي.

ابتسمت ابتسامة باهتة، وقلت بنبرة منكسرة: الأمر ليس بإرادتي، أنا مجبرة على التعايش مع هذا الواقع الذي فرض علينا.

ثم سكتنا لبعض دقائق، نستمع بمشروبنا البارد، وقبل أن تنهي عصيرها، أردفت قائلة: لم يبقى لي سوى أربعة أيام ثم أعود للندن، وأتمنى أن أساعدك بأي شيء، صحيح أن الأوضاع لن تعود لسابق عهدها كما كانت، لكنني أتق بقوتك على بدء حياة جديدة.

كنت بحاجة لأي بصيص أمل، فقلت بنبرة متألمة: لقد أصبح الماضي بعيدا عن التحقيق من جديد، كل ما صرت أتمناه هو أن يعيش السيدة والسيد الدرقاوي حياة كريمة وهما في أرذل

العمر، كم أتمنى أن ترتاح أمي من ذلك العمل المضنى، الذي يأخذ منها الجهد الكبير مقابل بعض الدراهم المعدودة وتعود العافية لأبي، فيكفيه العقاب الذي ناله.

أحست نرجس بمرارة العبارات النابعة من قلبي، فوضعت يدها على يدي، وأردفت بنبرة مطمئنة: بل ستعود أفضل مما مضت، أنت إنسانة مؤمنة وقوية، تذكري أن أي شيء يبدو سيء يمكن أن يحمل خيرا بين طياته، إنه ابتلاء تمرون به، وسوف تنجحون في تخطيه بإذن الله. وكم أتمنى أن أساهم في هذا التغيير؟

فقلت: حتى لو لم تفعلي ذلك، فأنا ممتنة لك.

فأضافت: هناك صديق لزوجي قد افتتح منذ أسبوع معهد لتعلم اللغات، وهو بحاجة لأستاذة في اللغة الألمانية (اخذت ورقة صغيرة وكتبت عليها العنوان الكامل للمعهد ثم قدمتها لي) إنه عمل مسائي على ما أظن، والأجر لا بأس به، وهذه فرصة جيدة لإغناء مسيرتك المهنية ومساعدة عائلتك.

كان أجمل خبر أتلقاه منذ فترة طويلة، فنهضت من الكرسي حتى أعانقها، فإذا بها تأمرني بالجلوس وهي تقول: لم انتهي بعد، هناك أيضا عرض آخر، هناك جريدة إلكترونية حديثة العهد لإحدى معارفي، لكن نيل هذه الوظيفة لا يتحقق إلا بعد إثبات الكفاءة المهنية في فترة التدريب، وأنا أثق فيك ...

لم أصدق ما قالت لي، فسألت: أرجوك كرري ما قلته..

أصيبت نرجس بالقلق، وأردفت: أعلم أنك تحلمين بالعمل مع جريدة مشهورة، وأمنيتك العمل مع الكاتب الصحفي المشهور إسماعيل سنين...لكن إن لم يعجبك العرض...

ضحكت وقلت لها: بل أنا سعيدة بهذه الفرصة، أقبل ... أقبل وبكل سرور.. لن أنسى لك هذا المعروف... أتمنى أن أرد جميلك يوما.

ضحكت نرجس من السعادة وقالت بثقة: ستفعلين ذلك، عندما سوف تسمحين لي بالتقاط صورة تذكارية مع الصحفية الكبيرة فائزة الدرقاوي، وأنشرها في مواقع التواصل الاجتماعي الخاص بي وأنا أقول للجميع بفخر: هذه صديقتي.

تسلل الحديث التحفيزي لنرجس كطاقة نور في داخلي، حتى شردت بعيدا بأحلامي وقلت في سري " يا الله... لو تحقق الحلم !ويكتب بالخط العريض بقلم الصحفية المقتدرة فائزة الدرقاوي، لا شيء مستحيل مع الله، وكما يقال فعادة ما تكون البدايات الصعبة نهايتها جميلة".

لن أنكر أن الإيمان القوي لنرجس السلاوي بقوتي، أعاد لي الثقة بنفسي من جديد، إنها اجمل هدية أرسلت لي في هذا الوقت الصعب، فهي الشخص التي تعلم كل شيء عني، عن عشقي للقلم وعن ولعه بالكاتب الصحفي الذي أراه القدوة لي وهو لا يدري حتى بوجودي، إنه الصحفي المخضرم إسماعيل البيضاوي مالك الجريدة الشهيرة " شوف العالم بنظرتك" و يوجد مقرها الرئيسي بحي يوسيجور، كنت أتابع كل أخبارها يوما عن يوم، وكانت المقصد الأول الذي قدمت فيه سيرتي الذاتية في مرات كثيرة، حتى صار وجهي مألوفا لموظفة الاستقبال هناك، كانت الفتاة الشابة تشفق لحالي، وتحاول أن ترسل رسائل مشفرة بأن هذا المكان لا يحتضن إلا الصحفيين ذوي التراكمات في المجال، وعندما لاحظت إصراري الكبير، أهدتني البريد الشخصي لإسماعيل البضاوي، وشجعتني أن أرسل إليه بعض النماذج من مقالاتي، فربما يحالفني الحظ وأحصل على تدريب في أكثر تقدير. أخذته وغادرت وانا على اقتناع تام بعدم العودة مجددا إليها.

كانت نرجس لا ترتاح بتاتا لهذا الصحفي وتصفه دائما بالمنافق وبائع الكلمات التي يصيغها بأسلوب ساحر، وما زاد من ترسيخ هذه القناعة لديها بشكل أكبر، هي تلك الفضيحة الأخلاقية التي مست سمعته، عند اتهام إحدى الصحفيات المبتدئات له بالتحرش بها لفظيا وجسديا ومساومتها بالترقية والأجرة الكبيرة مقابل أن تصبح إحدى عشيقاته العديدات، وبالطبع لم أكن لأصدق مثل هذه الشائعات التي تم تداولها حينها، وكنت أراها مجرد مؤامرة لتكميم قلمه الحر.

(03)

بعد شهر من التدريب في المجلة النسائية " لالة الغزالة "، تفوقت بشهادة الجميع، فتعينت كصحفية بعقد عمل لا يتجاوز ثلاثة أشهر من طرف المالكة للمجلة، كان إسمها ماريا قطبي، وهي سيدة لطيفة وحازمة من أسرة أرستقراطية، في أواسط الأربعينيات وأم لطفلين، ذات هيئة أوربية في مظهرها الخارجي، خريجة أحد المعاهد الصحفية بكندا، وذات تجربة كبيرة في الميدان، فإلى جانب إدارتها للمجلة، كانت أيضا مراسلة صحفية لإحدى القنوات الكندية.

في مجلة "لالة الغزالة" التي لم يتجاوز ظهورها على الساحة الإعلامية إلا سنتين، كان مسموح لنا فقط بمناقشة القضايا التي تتعلق بالمرأة، فكنت بارعة في تلك التحقيقات التي تعالج التابوهات، كنت سعيدة بعملي رغم أجرته الهزيلة بالمقارنة مع منصبي كأستاذة للغة ألمانية في الفترة المسائية في معهد اللغات والذي كان فيه دوامي لا يتعدى أربعة أيام، حتى أنني في أحيان كنت لا ألج منزلنا إلا مع سواد الليل، كل شيء كان يهون من أجل راحة أمي التي أصبح كل اهتمامها موجه للعناية بأبي.

لن أنكر أن العمل غير نمط حياتي وحتى نظرتي للأمور، أصبحت شخصية أكثر تنظيما وانضباطا، فكنت كلما أقف أمام المرآة الكريستالية بغرفتي وأنا أستعد ليوم جديد، إلا وترمقني تلك المرآة التي تشبهني بابتسامة مفعمة بالحياة، لم أفكر يوما بأن العمل سيصبح جزء من حياتي، لا زلت أتذكر، وأنا في برجي العالي، كيف كنت أنتقد تلك النساء العاملات لساعات طويلة غير واعية بأن ظروف الحياة أقسى من رغباتنا.

وصلت المجلة " لالة الغزالة" مبكرا، وبجعبتي العديد من الأفكار الجديدة، فإذا بي أفاجأ بالمساعدة الخاصة للسيدة ماريا القطبي، تطلب مني الالتحاق بقاعة الاجتماعات، كان عددنا الإجمالي للموظفين بالمجلة لا يتجاوز ستة عناصر، ما بين كاتبتين صحفتين وصحفيان مصوران والمساعدة الخاصة بالإضافة للسائق، كانت علامات الفضول تعلو كل الوجوه، وبعد دقائق من السأم، ولجت السيدة ماريا وهي بكامل أناقتها المعتادة، جلست على رأس الطاولة المستطيلة وبجوارها مساعدتها الخاصة، حدقت بنا بنظرات عميقة لتوان، ثم قالت بهدوئها المعتاد: أيتها السيدات والسادة الأفاضل، أشكركم على الحضور...كنت لا أتمنى يوما أن أقف في هذا الموقف الصعب حتى أعلن عن إفلاس مجلتنا وانتهاء الحلم الجميل.

ما أن انهت جملتها، حتى تعالت الأصوات داخل هذه القاعة الضيقة، بعضها ساخطا وخائفا من مستقبل مجهول ينتظره، والبعض الآخر لم يستوعب بعد ما قيل للتو.

حاولت مساعدتها الخاصة تهدئة الأجواء وهي تصيح: أرجوكم، التزموا بآداب ومبادئ الحوار ... (الصراخ يعم القاعة) ... من فضلكم ...

فتدخل أحد المصورين الصحفيين الذي كان أكبرنا عمرا وخبرة مكسرا ذاك الضجيج الذي يعم بالقاعة وهو يخاطب السيدة ماريا بنبرة مستاءة: بأي حق تقررين بمفردك مصير مجلتنا، يا أستاذة، كان عليك على الأقل أن تستشيرنا.

نظرت له السيدة ماريا بأسف وقالت: إنني أجبرت على هذا القرار، يا أستاذ العدناني، وكما تعلم وأنت الخبير بالميدان، إن مثل هذه المشاريع لا تستمر إلا بالإعلانات، ونحن للآسف لم ننج مند افتتاح المجلة إلا على الحصول على إعلانين بسيطين، نتيجة عدم القدرة على جذب اهتمام القراء، أنا متأسفة وأعترف أنني كنت المساهمة الأكبر في هذا الفشل، فأنا من فرضت هذه النوعية من المواضيع الجادة في الوقت التي تعتبر المواضيع الفاضحة هي من المثيرة لاهتمام القراء.

فتدخلت الكاتبة الصحفية الأكثر خبرة مني بنبرة كلها لوم: لطالما أخبرتك بذلك يا أستاذه ماريا، وحتى الآن، مازال الوقت مبكرا للتغيير، يمكننا فعل ذلك وبطريقة غير مبتذلة.

فأجابت بنبرة حاسمة: كنت أتمنى ذلك يا أستاذتي العزيزة، لكنني عاجزة أن أناقض مبادئ الصحافة الحرة، أعتذر من الجميع...

فقاطعها المصور الصحفي الأصغر سنا في المجلة متسائلا بحيرة: وماذا عنا، ألم تفكري بمصيرنا يا أستاذة.

فأخفضت السيدة ماريا عينيا خجلا، ثم انسحبت من قاعة الاجتماعات تحت أنظارنا بصمت، فانتهى الحلم الجميل الذي لم يدم بالنسبة لي سوى شهرين ونصف، وعاد كل واحد لمكتبه حتى يجمع أغراضه ويرحل لحال سبيله، إلا أنا لم يكن لي زاوية رسمية خاصة بي هنا، وقبل أن أغادر المكان بشكل نهائي، وضعت الحقيبة الصغيرة على كتفي وتوجهت لمكتب السيدة ماريا، لم تكن أنيسة المساعدة الخاصة أمام غرفة مكتب السيدة ماريا، انتظرت للحظات، وعندما لم تظهر، تجرأت وطرقت ثلاث طرقات على باب مكتب السيدة ماريا، فلم أتلق أي جواب، فقمت بفتحه بهدوء، فإذا بي أرى أمامي امرأة تائهة بعينيها في كل ركن من أركان مكتبها، ما أن رأتني حتى طلبت مني الجلوس، فجلست بالكرسي المقابل لها، لم

تتلفظ بأي كلمة تنتظر مني المبادرة، فقلت لها: لقد جئت أشكرك على الفرصة التي منحتني إياها، وعلى كل النصائح الذهبية التي جودت من ممارستي المهنية.

علت وجهها ابتسامة جميلة، وقالت لي: أنت جد موهوبة يا فائزة، إنني أرى لك مستقبلا باهر في هذا المجال.

- **أشكرك يا أستاذتي على هذه الكلمات المحفزة لي للاستمرار في هذا الميدان**
- **صدقا، إنني لا أجاملك، أسلوبك الصحفي ساحر وجاذب، استمري، أرجوك.**
- **أتمنى ذلك، ولو أن مثل هذه الفرص تبقى ضئيلة، في ظل التجربة القليلة لي.**
- **أتفهم ذلك، كل ما أستطيع ان أعدك به، هو أنه تمكنت من تجاوزي مشاكل وأعدت فتح المجلة من جديد، فستكونين من الأوائل ضمن طاقمي الصحفي.**

كانت الشهادة التي أدلت بها بمثابة فخر لي، خاصة من صحفية مرموقة في هذا الميدان، لن أنسى ذلك اليوم، الكل غادر ساخطا إلا أنا، كنت أرها تجربة فريدة، صحيح أنني فقدت أحد مداخيلي، لكن اكتسبت الثقة بنفسي، وأصبحت أؤمن بقدرتي على النجاح، وأصبحت تراودني أفكار جديدة لمستقبلي، كتأسيس موقع إلكتروني أدون فيه كل مقالاتي، كلما أحتاجه لتحقيق مشروعي هو الوقت والصبر والمال.

تلك الرغبة القوية اللامعة بعيني السيدة ماريا في إعادة فتح المجلة مستقبلا، جعلني أؤمن يقينا أن الفشل ما هو إلا جزء من الحياة ولابد أن نمر به، حتى نصبح نجوما تتلألأ في سماء العلا.

تمر الأيام برمشة عين، إننا في آواخر شهر يوليوز الحار والطويل، وفي إحدى الليالي المسائية، أنهيت عملي المعتاد بمعهد اللغات، لأتفاجأ بالسكرتيرة تخبرني أن السيد المدير يريد مقابلتي، فقلت في سري:" خيرا إن شاء الله" فلحقت بالفتاة بخطى متباطئ، وفي طريقي بدأت تتلاعب بي عدة أفكار سوداوية" هل المعهد أفلس أيضا؟ هل سأفقد وظيفتي مرة أخرى؟ أه... لربما سيقدم اعتذارا لطيفا ويرحل، هذا ما كان ينقص حياتي المعكر بالمجمل "

لم أعد للواقع من جديد إلا بعد الطرقات الثلاث للسكرتيرة على باب مديرها، ليطلب منا صوت ضخم من عمق الغرفة بالولوج إليها، فارتجفت رجلاي أكثر، فتحت الباب ونظرت لي وهي تشير قائلة: تفضلي يا آنسة فائزة،

دخلت بمفردي، بينما بقيت خلف الباب الذي أغلقته علينا بقوة، اقتربت منه منحنية الرأي والخوف يسيطر علي، ما أن دنوت من المكتب أكثر حتى نظرت نحوه، فلم أرى أمامي سوى

رجل منحني الرأس ضائعا بين الأوراق الكثيرة المبعثرة على سطح المكتب، انتبه لوجودي، فرفع رأسه نحوي وهو يقول بصوت غير مألوف لي: الآنسة فائزة الدرقاوي، هل نطقته صحيحا؟

تمعنت الرجل بعينين منذهلتين، لم يكن نفس الرجل الذي وظفني، كان رجلا سمينا في بدلته الرسمية، في آواخر الأربعينات من عمره، أبلق البشرة وأصلع الرأس و حليق الوجه، لاحظ ارتباكي، فأردف وهو يشير إلى الكرسي الضخم الذي أمامه: أنا المالك الجديد، أرجوك تفضلي..

فسالت بنبرة حادة: أين هو السيد مصطفى أفندم؟

فجأة، صارت تعابير وجه الرجل ساخرة، وهو يقول بوقاحة: لقد تقاعد عن العمل، ألم أعجبك أنا؟!

أحسست لأول مرة بالإحراج من تصرفي الأرعن، وقلت وأنا شبه متلعثمة: بالطبع، لا...لم...أقصد يا سيدي، كنت أود...كنت...

لم يترك لي مجالا لأنهي حديثي، بل أضاف يقول بتكبر: لا بأس يا آنسة، حسنا وحتى لا أطيل عليك، كنت أود أن أعرف نوع العلاقة التي تربطك بالسيد أفندم.

أجبت بدون تردد: إنه العمل يا سيدي.

تبسم بخبث وهو يتمعن بدقة داخل أحد الملفات الموضوعة أمامه، ثم أضاف بازدراء: لكن كيف اشتغلت في معهدنا كأستاذة لغة ألمانية بهذه الأجرة الكبيرة، وأنت كما أرى عديمة الخبرة...إلا..

لم أستطع ابتلاع تلك الاتهامات المسيئة لكرامتي فقلت بسخط: إلا ماذا؟ هل يمكن أن تشرح لي ما تعنيه؟

نظر إلى بنظرات غير بريئة وقال بنبرة مستفزة: الأمر واضح يا آنسة فائزة، إلا إذا كنت بعلاقة غير شرعية مع والدي العجوز.

كانت الجملة الأخيرة كافية ليتأجج الغضب بداخلي، فتحول لون وجهي إلى الأحمر القاتم، وقلت له غير آبهة بالعواقب: يكفي يا هذا، لن أسمح لمتسلط سمين مثلك أن يهينني أكثر، ومن الآن أنا مستقيلة.

تفاجأ الرجل كثيرا بردة فعلي، حتى شل لسانه عن النطق، فنهضت من مكاني، ثم أزحت بغضب الكرسي بعيدا أمام عينيه المذهولتين، ثم انسحبت بعد أن أغلقت الباب عليه بقوة، أثار تصرفي انتباه السكرتيرة وبعض زبناء المعهد الفضوليين، فحاولت الفتاة اللحاق بي،

لكنني كنت سريعة كالريح في ليلة عاصفة وفي داخلي أردد" إلا كرامتي، إلا كرامتي، لن أسمح فيها "

وصلت المنزل شبه غائبة عن الوعي تطبع علامات الخيبة والتحسر تقاسيم وجهي النحيف ، ولجت لغرفتي الخاصة، ثم ارتميت بكامل جسدي المنهزم على السرير، ثم أجهشت بالبكاء وقلت لنفسي " لقد كان تطيري هذه المرة صحيحا، فها أنا في ظل أسبوعين أفقد وظيفتين وأهان أيضا في كرامتي"

وفجأة، فتح باب غرفتي ودخلت منه أمي، ثم دنت مني وجلست على حافة السرير، لامست بكفها جبيني وسألت بقلق: لقد كنت أناديك ولم تسمعيني، هل أنت على ما يرام؟

نظرت إليها بعينين مبللتين وهمست بنبرة متألمة: لقد فقدت هذا العمل أيضا...أنا متأسفة يا أمي، لم أستطع تحمل الإهانة...أرجوك، سامحيني، يا أمي...سأوضح لك كل شيء...

أطبقت بيدها العريضة على ثغري الصغير تمنعني من الحديث، ثم عانقتني بقوة وهي تقول: لا ضرورة لذلك يا حبيبتي، أصدقك، تذكري دائما أننا لم نخلق في هذه الأرض لكي نهان من طرف أحد، لا تقلقي بشأننا، فمن خلقنا لن ينسانا.

(04)

يقول حكماء هذا الزمن أن الإنسان الناجح دائما هو الإنسان المتفائل، لأنه الشخص الذي يرى دائما الجانب الإيجابي في الأمور، ويتمتع بروح وحاجز منيع ضد كل الأزمات التي يمر بها، هو الذي لا يتجاهل مشاكله، بل يعمل على إيجاد حلول لها، هو من يثق بقدراته على تحقيق المستحيل.

كم هي رائعة هذه العبارات التي يرددها من لم يعش حياتك؟! ومن لا يدرك أن الأزمات التي تمر بنا إذ لم تقتلنا، فإنها تترك آثارها العميقة بنفوسنا، ليس كل شخص قادر على التحمل، فنحن بشر، نختلف في الصفات والطباع، وضعفاء حتى لو نبدو كالأقوياء، وهذا ما كنت أبصر على وجه أمي القوية، كلما اختلست النظر إليها من حين لآخر، أجدها منهكة وضعيفة في عزلتها، وفي أحيان أجدها دامعة العينين، وعندما أحاصرها بأسئلتي المفاجئة، تخفي تلك التعاسة بابتسامة مزيفة وهي تردد مازحة " إنه الإرهاق الذي يصيب النساء في منتصف العمر"

توشك أيام فصل الصيف على المغادرة بشكل طبيعي حتى حل هذا اليوم الذي لا أدري أأعتبره يوم سعد أو ترح، اليوم أتممت عامي السابع والعشرين، و كنت سأزف فيه لحبيبي بالقفطان التقليدي الأبيض، ثم أبدأ حياة جديدة، لولا ذلك الزلزال الذي قلب حياتنا والاختفاء المفاجئ لصلاح أرلان، لم أستطع التحكم بمشاعري الهشة، فانسلت من عيني دمعتان متمردتان لتبللا وسادتي الشاهدة الدائمة على أوجاعي وغارقة في عالمي الكئيب، الذي لم ينقده منه وبشكل مؤقت إلا ذاك الصوت الملائكي الآت من غرفة الجلوس، لم تكن هذه المرة أمي بمفردها، حيث كان أبي يقعد على الكرسي المجاور لها وهو بأفضل حالاته، مضى وقت وأنا أتفادى مقابلته، كان يرتشف قهوته المنسمة بالأعشاب العطرية بهدوء شديد، ما إن رآني قادمة حتى تجلت في عينيه مسحة من الندم، قلت وأنا اجلس بمكاني المعتاد: صباح الخير.

فأشرقت أمي بابتسامة قصيرة وقالت: صباح الورود، وعيد ميلاد سعيد لأجمل وردة بحديقتي.

بادلتها نفس الابتسامة وقلت: وصباحك أيضا ورد وياسمين يا أمي.

كنت أظن في لحظة أن مشاكلنا الكثيرة قد آنست أمي ذكرى ميلادي، ولم أكن لأعاتبها إن نسيت، فمما نمر به فد نغفل حتى عن أنفسنا.

وفي تلك الأثناء، أنزل أبي فنجانه على سطح المائدة المستديرة، ثم خاطبني بصعوبة: عيد ميلاد سعيد يا حبيبتي.

نظرت إليه بحنق، وقلت بصوت جاف: شكرا لك.

فتغير لون وجه أبي إلى الاصفرار الباهت، وأضاف بتلعثم: إنني آسف على كل شيء.

ذلك الصوت المتقطع التعيس لأبي أثر في بشدة، لدرجة أحسست وكأنني أغرق في مكاني، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أحتضنه بقوة، وبعد ما أدركت ما أفعله، ابتعدت بسرعة عنه، فتكدر وجهه الدائري واغرورقت عيناه العسلتين وهو يقول بنبرة متعبة: لم أقصد أن يحدث كل هذا، لقد غامرت بعائلتي في صفقة فاشلة، كان ثمن تلك الأقمشة مغريا، فاقتنيت كمية كبيرة وسددت مقابلها صكوك بدون رصيد، لكن السوق غدر بي، لأجد نفسي متهما بالنصب والاحتيال، حاولت أن أجد الحلول لكنني فشلت.

كان منهارا وهو يحاول إقناعنا بأي ثمن، خشيت أمي عليه من نكسة جديدة، فهدأته بالقول: إننا نصدقك، يا محمد، أرجوك، دع الماضي جانيا، نحن لا نلومك على شيء يا عزيزي..

تلاشت الكلمات من الشفاه، وتهت في صراع بين أفكاري، فمن جهة، لا يحق لي معاقبته على أملاكه التي ضيعها بنفسه، ومن جهة أخرى، كنت ألومه وبشدة على ضياع أختي علياء- بعد أن حرمها من الحياة المترفة التي تعودت عليها، كان لا يريد منا إلا الصفح النابع من القلب، لكنني كنت بحاجة لمزيد من الوقت حتى أنسى، في تلك الأثناء رن هاتفي الخاص، لينقدني من هذا الموقف الصعب، فهرولت بسرعة لغرفتي.

ضغطت على زر الإجابة، فإذا بصوت رجولي لأول مرة أسمعه يقول: السلام عليكم، أستاذة فائزة.

اندهشت وسألت بحيرة: من أنت، يا سيدي؟

فأجاب بشكل سريع: أعتذر منك، معك المصور الصحفي علي عدنان...كنا نعمل معا في مجلة " لالة الغزالة"

فقلت باستغراب: اه، مرحبا بك، يا أستاذي.

فأضاف بارتباك: أرجو ألا أكون اتصلت في وقت غير مناسب، يا أستاذة فائزة

ابتسمت مطمئنة إياه، وقلت له: بالطبع لا.

فأردف موضحا: لقد اتصلت بي جريدة مغمورة تبحث عن صحفي مبتدئ، ففكرت فيك، إذا كنت متفرغة لذلك.

وبنبرة مستعجلة، قلت: يشرفني دائما العمل معك يا أستاذي.

فأضاف شارحا: إنه مع الجريدة الإلكترونية المعروفة " شوف العالم" للأستاذ الغني عن التعريف الصحفي المعروف إسماعيل البيضاوي...وذلك بعد فترة تدريب لمدة شهر، وإذا نلت إعجابهم، فسوف تصبحين من طاقمها الصحفي.

لم أتردد لحظة في الموافقة، رغم أنني كنت آمل دائما أن أكون جزء من الطاقم الصحفي للصحفي إسماعيل في الجريدة الورقية، لكني لن أفوت هذه الفرصة الذهبية، التي يمكن أن تفتح لي آفاقا واسعة، وتغني مسيرتي المهنية.

ما زلت لم أصدق بعد، رغم أنني دونت العنوان الذي أعطاه لي السيد العدناني بنفسي، وأخبرني عن الساعة التي سأجري فيها هذا اليوم لأول لقاء لي برئيس تحرير النسخة الإلكترونية لجريدة " شوف العالم"، وأخير، سوف يفتح لي باب من أبواب النجاح الكبير، وأنا في الطريق الصحيح للنجاح.

وبمجرد انتهاء المحادثة الهاتفية مع الأستاذ العدناني حتى سارعت بإخبار أمي بالخبر السعيد، فأشرق وجهها تبسما من أجلي، وبعد ذلك، تأهبت مسرعة للموعد التي سيتم في الثانية والنصف زوالا، خاصة وأنه لم يتبقى من الزمن سوى ساعتين، ارتديت طقم نسائي أنيق، عبارة عن جاكيت ذات لون وردي بأكمام طويلة، وسروال واسع ناصع البياضة، وارتديت حذاء ورديا بكعب متوسط، وزينت كتفي بحقيبة أنيقة من الحجم الصغير، وأخفيت خصلات شعري بحجاب زهري اللون من الخامة الممتازة، وجعلت وجهي أكثر جاذبية بمكياج ناعم.

كان مقر الجريدة بحي بوسيجور الراقي، وصلت في الموعد المحدد، وما أن ولجت للداخل ورأتني موظفة الاستقبال حتى تذكرت وجهي، فابتسمت وهي تقول: إنني أغبطك على قوة إصرارك، لم تمل أبدا، ها أنت هنا مجددا.

ارتسمت على وجهي ابتسامة واثقة وقلت: لدي موعد مع رئيس تحرير الجريدة الإلكترونية " شوف العالم"

فوجئت بكلامي، وسألت بتلعثم: هل أنت الآنسة فائزة الدرقاوي؟

فقلت بكل شموخ: نعم، الصحفية فائزة الدرقاوي.

تبسمت الموظفة هذه المرة ابتسامة عريضة وهي ترحب بي، ثم رفعت سماعة الهاتف وبلغة فرنسية راقية أبلغت رئيسها بقدومي، بعد دقائق، أقبلت علينا سيدة قمحية البشرة تضع نظارات طبية، توحي هيئتها الجادة بأنها شخصية صارمة في عملها، رحبت بي برسمية، وطلبت مني أن أرافقها، ركبنا المصعد وتوقفنا بالطابق الأول، وولجنا الشقة الوحيدة هناك، ومشينا في باحة عريضة، كلما اتجهت يسارا إلا وصلت لقاعة الموظفات والموظفين الواسعة والمستديرة، وكلما انعطفت يمينا إلا ويظهر لك وبالخط العريض غرفة مكتب السيد رئيس التحرير.

بعد دقائق من المشي المسترسل وصلنا لغرفة مكتب رئيس التحرير، فدقت مرافقتي مرة واحدة على الباب، ورحلت وتركتني وحيدة، بعد ثوان معدودة، فُتِحَ الباب من الداخل، لأُفَاجَأ بآخر إنسان كنت أتوقع رؤياه، كان في غاية الأناقة بلباسه الكلاسيكي، وأوسم مما كان عليه في الماضي بوجهه الأبيض الذي زينته لحية سوداء خفيفة، إنه صلاح أرلان ومن لا يعرفه، وفي اللحظة التي تجمدت في مكاني من هول الصدمة، بدأ هو يحدق في وجهي بعنينين مذهولتين، وما أن تأكد من هويتي حتى تغيرت تعابير وجهه للقلق، حاول إخفاء ذلك عني، لكن حركاته المرتبكة فضحته، لملم شتاته وأفصح بنبرة رسمية : تفضلي، أرجوك.

لم يكن بمفرده في غرفة مكتبه البسيط، بل كانت هناك فتاة تجلس على الأريكة المبطنة تنتظره، تتألق كعارضة من عارضات الأزياء الحسناوات، بنحافة جسدها ولون شعرها الفضي المتموج وبشرتها البرونزية، ملفتة للنظر في طريقة تبرجها، ما أن رأتني حتى قفزت من مكانها وهس تحدثه بشغف: سأتركك الآن، يا حبيبي.

لم يكترث بها، فطبعت قبلة على خده الأيمن بوقاحة غير آبهة بوجودي بينهما قبل أن ترحل، فاحمرت وجنتيه خجلا، كأنه لم يتمنى أن أراه في هذا المشهد، كنت أشك فيه، وهأنا أضبطه بجرم الخيانة المشهود.

بالرغم مما رأيت بعيني، فلن أنكر تلك الأحاسيس المولودة من جديد، وتلك الرغبة في أن أصرخ فيه وأضربه بكل قوة، ثم أخبره أنني أفتقده بقوة، وقبل أن أتصرف بشكل متهور، استحضرت سبب وجودي هنا، فكبحت تلك الحمقاء التي بداخلي.

كان الجو متكهربا في غرفة المكتب، قعدت على الكرسي الذي أشار إليه، بينما هو اعتلى كرسي رئيس التحرير، تفحص بتركيز شديد سيرتي الذاتية، وبعد ذلك رمقني بنظرة وقحة وهو يسأل: هل أخبرك السيد العدناني عن فترة التدريب؟

أخفضت عيني في الأرض وقلت: بالطبع.

عاد من جديد يمعن النظر في السيرة الذاتية، كأنه يبحث عن شيء ما.

رفعت رأسي نحوه وقلت وأنا أنظر بعينيه بقلق: هل هناك شيء ما لم يرق لك يا أستاذ.

تبسم بدهاء وقال: كل شيء جيد.

رفع سماعة هاتف مكتبه وأجرى اتصالا خاطفا مع إحدى موظفاته طالبا منها المجيء لمكتبه في الحال.

ما كادت تمر لحظات حتى دخلت علينا نفس السيدة التي قادتني قبل قليل لغرفة مكتبه، أكد عليها بالجلوس ثم توجه بكلامه إليها: الآنسة ستكون تحت عهدك يا أستاذة غيثة، فأرجو أن لا تبخلي عليها بأي معلومة خلال فترة تدريبها.

كانت تلك اللحظة وأنا معه من أقسى ما مررت به، تنكر لي إلى درجة حتى أن اسمي صار ثقيل النطق بين شفتيه، فخالجتني رغبة عارمة في البكاء على نفسي، تمالكت نفسي بصعوبة حتى لا يكشف أمري أمام الصحفية المسؤولة على تدريبي.

كانت المكاتب بقاعة الموظفين مفتوحة عن بعضها البعض، لم يفصلها سوى جدار خشبي منقوش بإتقان، كان مكتبي يجاور مكتب السيدة المسؤولة عن تدريبي التي تدعى غيثة الحلواتي، وكان يعتلي سطح كل مكتب حاسوب محمول وبعض الأوراق والأقلام الملونة، بالإضافة لخزانة كبيرة تضم أرشيف الجريدة وآلة نسخ كبيرة، كانت السيدة غيثة في أواسط الثلاثينيات وذات باع طويل في الميدان، ومن خلال تبادل أطراف الحديث معها برزت أمامي شخصية خدومة وشغوفة بمهنتها، لم تبخل بأي معلومة، حيث كانت مهمتي بالأسبوعين الأولين مقتصرة على ترتيب الملفات بالأرشيف وبعملية النسخ للزميلات والزملاء، وفي الأسبوعين الأخيريين، فسوف أنتقل لمهمة الكاتبة الصحفية من خلال مساعدة الزميلات والزملاء في إنجاز تحقيقات وأيضا كتابات مقالات بلقب مستعار، وتبعا لذلك سيقرر مصيري.

بعد إتمام أول يوم لي في الفترة التدريبة، وصلت منزلنا منهكة نفسيا وجسديا، عاجزة عن التحلي بمزيد من الصبر، فالأمر ليس بالهين على قلبي، ومهما تظاهرت بالقوة أمام

الآخرين، فإنني عاجزة أمام نفسي، فرؤية ذلك الجبان جعلتني أدرك تماما أنني ما زلت أكن له مشاعر حية على الرغم من رؤيتي لخيانته بعيني، كنت خلال فترة العشاء شاردة وفاقدة للشهية، حتى أنني لم أتذوق إلا ملعقتين كبيرتين من طبق الحساء المفضل لدي، ثم انسحبت نحو غرفتي.

وبعد دقائق من استلقائي، سمعت ثلاثة نقرات خفيفة على باب غرفتي وصوت أمي يحادثني " هل ما زلت مستيقظة يا حبيبتي؟" لم أتفاعل مع خطابها على أمل أن ترحل حتى لا تراني في هذه الحالة الكئيبة، وبشكل مفاجئ، فتحت الباب ودلفت علي في الغرفة، لتجدني مستلقية كالموتى ووجهي باهت ودموعي تنهمران كشلال مسترسل، ارتعبت من المشهد الذي رأت أمام عينيها، فدنت مني أكثر وهي تسأل بقلق: ماذا بك يا ابنتي؟

ارتسمت تعابير الفزع على وجه أمي وهي تقول: هل أنت بخير يا فائزة؟

أخذت نفسا عميق بصعوبة وقلت بصوت خافت: أنا بخير يا أمي، ساعديني حتى أسند بظهري خلف الوسادة.

وبعد أن قدمت لي العون، أردفت قائلة: هل الوضع الآن أحسن؟

فحركت رأسي بإيماءة رضا، فأضافت مرة أخرى: ما الأمر يا ابنتي؟ ما الذي تخفينه عني؟ لم أعد قادرة على إخفاء ضعفي ولم تكن لدي أحد يتقاسم معي أحزاني إلا أمي، فحكيت لها كل ما يجول بخاطري، فمسكت بذقني ونظرت إلى عيني المتورمتين وقالت بحزم: إياك أن تضعفي يا فتاة، تذكري دائما ما فعله بك ذلك الخائن النذل، يجب أن تدوسي ذلك المؤذي بكلتا قدميك...فهو لا يستحق حبك... هل فهمت ما قلت لك؟

فصرخت فيها دون أدنى تفكير: أحبه يا أمي... لا أستطيع أن أتحكم بقلبي...أحبه...

لم أعد بنفسي إلا ويد أمي ترتفع عاليا لترسم بصفعة قوية على خدي وهي تردد " آن الأوان أن تستعيدي نفسك التائهة، وأن تختاري بين أن تكوني إما عزيزة نفس أو ذليلة تداس بالأقدام" ثم غادرت من غرفتي ووجهها يشتعل غضبا، كنت أعلم أنها على صواب، لكنها لا تدري أنني هشة وأي ريح يمكن أن تقتلعني من مكاني وتوجهني كما تشاء، و أنني صرت أكثر وهنا بظهوره المفاجئ بحياتي،حتى صرت أتمنى لو يعطيني مبررا واهيا لغيابه؟! ثم يعتذر عن خيانته، فأعود له دون تردد.

كاذب من ينكر أن الحب ليس مقترنا بالذل، المحبة أسست على المذلة للمحبوب، ومنكر ذلك لم يعرف الحب ولا شم رائحته

(05)

مضت ثلاثة أسابيع بسرعة على تواجدي بالجريدة الذي تمنيت أن أكون من طاقمها، وخلال هذه الفترة لم ألتقي صلاح أرلان إلا نادرا، وعندما أصادفه تكون برفقته تلك الشقراء الفاتنة، وكلما رأيتهما سويا إلا وأبحرت بعيدا بأفكاري، وأنا أتصور نفسي معه نتبادل الابتسامات وكلمات الغزل وهو يضمني إليه بقوة، وذات مرة انتبهت نرجس لذلك السرحان الذي أعيشه في كل مرة أراهما فيه، فتبسمت بدهاء وهي تهمس: إسمها سارة أجلاك، في السابعة والعشرين من عمرها، وهي إحدى الصحفيات المميزات بالجريدة الورقية " شوف العالم" و اليد اليمني للأستاذ إسماعيل البضاوي، ويشاع أنها من ساعدت رئيسنا حتى نال المنصب الذي هو فيه الآن.

تظاهرت بعدم الفهم، وهمست لها: عمن تتحدثين يا فتاة؟!

ضحكت نرجس بصوت خافت، ووضحت بهمس: عن السيد رئيس التحرير البغيض وعشيقته يا آنسة كآبة.

شعرت بالخجل من نفسي، فمهما حاولت إخفاء ما يدور بعقلي فإن عيني تفضحني، كنت أتصور أنني الوحيدة التي أحيط علما بكل شيء يتعلق بهذا الرجل، لكن اتضح لي أن هناك آخرون يعلمون عنه أكثر مني، لم تكن نرجس وحدها التي تكرهه، بل هناك صحفيون آخرون لهم نفس المشاعر، يعتبرونه إنسان وصولي وانتهازي لا يستحق المنصب الذي هو فيه، حتى أن نرجس في يوم من الأيام، أبلغتني أنها قد جاءها خبر بأن أحد الصحفيين المتدربين الجدد، قد دخل في نزاع حاد معه متهما إياه بسرقة أفكاره ومقالاته، ليتم بعد ذلك طرده من الجريدة.

بقيت تلك الروايات التي تنشر عنه مجرد شائعات ومن الصعب الجزم بمصداقيتها ما لم أرى ذلك بعيني وتصدقه أذني.

كانت خطواتي لتحقيق أحلامي متأنية، حررت أول مقالاتي الإلكترونية تحت لقب " الآنسة كآبة" كنت أناقش المواضيع التي أطرحها بأسلوب الكوميديا السوداء، وبعد نشر المقالة الثالثة لي، بدأ صدى نجاح الآنسة كآبة يلمع عاليا، واستقبلت الشخصية الجديدة التي ابتكرت الكثير من الآراء ما بين الإعجاب والانتقاد، وساهم نجاحها هذا في رفع من أسهمي في الجريدة، وانهالت علي التهاني من كل زميلات وزملاء العمل باستثنائه هو.

وفي اليوم الموالي، وصلت إلى العمل متأخرة بساعتين، لأتفاجأ بنرجس تسألني: أين كنت يا آنسة كآبة؟ إن السيد البغيض يبحث عنك.

فقلت بقلق: هل كان مستاء مني؟ هل قال شيئا؟

لاحظت توتري الشديد، فأضافت مهدئة: لا لم يحدث أي شيء من ذلك، اذهبي إليه، هو ينتظرك في غرفة مكتبه.

ارتبكت جدا، فإنها المرة الأولى التي يطلب فيها رؤيتي، وفي طريقي إليها، بدأت أفكر فيما يمكن أن يحصل داخل تلك الغرفة الضيقة وقلت في سري " لم يبق إلا يومان على انتهاء فترة التدريب، وهو رغم نجاحي لم يهنئني، إنها فرصة جيدة ليطردني، يا إلهي، أتراه سيطردني قبل أن يسمع دوافعي؟!"

طرقت مرتين على باب مكتبه، فإذا بي أسمع صوت هادئ من الداخل يطلب مني الدخول، فتحت الباب ببطء شديد، ثم ولجت لوكره، لأجد أمامي رجلا منشغلا بأوراق يطلع عليها، وهو يقول: تفضلي، أرجوك.

استفزتني معاملته، فحتى لقبي الأول لم ينطقه، وتساءلت في سري " ألهذه الدرجة كنت لا شيء في حياته؟! " تعمدت إصدار صوت بجلوسي على الكرسي المقابل له، فانتبه لوجودي، وضع أوراقه جانبا، ثم تأملني بجرأة غير معهودة لعدة ثوان معدودة، ثم أردف بصوت هادئ: أود أن أهنئك على نجاح الآنسة كآبة، لقد كنت تلميذة نبيهة، كما اخبرتني الأستاذة غيثة، وبعد توقيع العقد معنا ستصبح بالنسبة لك مجرد زميلة... وستنتهي الأوامر (قال لي جملته الأخيرة وهو يضحك)

فقاطعته بنبرة رسمية: شهادة حق لن أسكت عنها، كنت مرتاحة مع السيدة نرجس، لم تعاملني بتلك الفوقية بل كنت أحسها صديقة مقربة لم تبخل علي بالنصائح القيمة.

ابتسم ابتسامة ماكرة، ثم أردف قائلا: هذا جيد، أتمنى أن تكون نفس لغة التواصل بيننا.

لم أعلق على عبارته الأخيرة، واكتفيت بتوقيع العقد الذي أمامي، كانت مدته سنة كاملة، عندما انتهيت ووضعت قلمي جانبا، علق بنبرة ودودة: إنني جد سعيد بوجودك معنا، يا فائزة.

فجأة، تخلى الرجل عن تلك اللغة الرسمية، مما آثار الشكوك في نفسي حول نواياه، لكن في قرارة نفسي، كنت أطير فرحا، فما زلت أريد هذا الرجل في حياتي وحتى لا أخسره، أجبت بنبرة ودية: شكرا لك يا سيدي المدير، وأنا سعيدة بالعمل معكم.

ارتسمت في عينيه ابتسامة انتصار، وبجرأة خاطبني: لا داعي لوجود الرسميات بيننا يا فائزة، فنحن لسنا بغرباء...أنا ما زلت أحبك... نعم، أحبك...فلا تستغربي...

أصبت بالذهول وصار وجهي متوردا من الخجل، وبدأت تخالجني رغبة كبيرة في أن أعترف بالمشاعر التي لا زلت أكنه له، لكن صورة أمي وقفت أمامي تمنعني، لاحظ ترددي وتوتري الشديدين، فأضاف قائلا: أعلم أنك غاضبة مني، أنا نادم لأنني تخليت عنك وأنت في أمس الحاجة إلي...

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أسأله بنبرة معاتبة: ولما فعلت ذلك؟ لماذا تخليت عني؟

رد قائلا: لأنني كنت رجلا جبانا، رجلا غير قادر على تحمل المسؤولية الأسرية، أما اليوم، فالمستقبل أمامنا، يمكننا ان ننجح معا.

تمردت من عيناي دمعتان وأنا أسأله برجفة: ولما خنتني بهذه السرعة؟ واخترت امرأة لا تشبه مبادئك، ألم تكن أنت من أقنعني بالحجاب؟ ألم تفصح دائما أنك رجل غيور جدا، فما الذي غيرك؟

وبنبرة واثقة أفصح: لم أتغير يا فائزة، إن كل ما يدور بالجريدة مجرد إشاعات، تلك السيدة مجرد زميلة وصديقة ليس إلا، أعلم أنها تحبني... لكنني أحبك انت.

لا أدري هل تلك الإجابة نابعة من قلبه أم هي مجرد مشهد تمثيلي آخر من مسرحياته العديدة، لكن ما أعلمه أن قلبي يصدقه، وأنه ينتظر مني ردا، لكنني كنت متوترة وخائفة من شيء ما، فانعقد لساني عن الكلام، لاحظ ذلك، فأضاف قائلا: لن أجبرك على شيء لا تريدينه، حتى لو رفضتني فسأحترم قرارك كيفما كان ولن أزعجك أبدا.

في تلك الأثناء، خشيت أن أفقده للأبد، وبدون تفكير، همست بخجل: لا أستطيع أن أرفضك، فأنا ما زلت أحبك.

كان يوما استثنائيا، فاليوم وقعت على عقد عمل ونلت رجل أحلامي، اتفقنا على أن تظل علاقتنا سرية لبعض الوقت، كان ذلك الأمر في صالحي، كنت أحتاج لمزيد من الوقت لأقنع أمي الرافضة له، كان لدي بعض الأمل أن ترأف لحالي وتغير رأيها من أجل سعادتي.

مر شهرين على علاقتنا البريئة، كنا خلالها نلتقي بعيدا عن مقر وزملاء الجريدة، ورويدا رويدا، تلاشت تلك المرأة الشقراء من حياته، وبدأت مسيرتي المهنية تشهد تطورا، وصارت الشخصية التي ابتكرتها محبوبة بين رواد مواقع التواصل الاجتماعي، كنت في قمة السعادة بهذا النجاح حتى لو لم يكن بإسمي الحقيقي.

حتى ذاك اليوم، فما أن أنهينا غذائنا بمطعمنا السري حتى أقبل علينا النادل يسألنا إن كنا نريد فنجاي من القهوة المعتادة، كنت أنتظر من صلاح أن يجيبه كما العادة، لكنه هذه المرة كان يبدو شاردا بعيدا في أفكاره، مما دفع بالنادل ليكرر سؤاله مرة أخرى، فانتبه إليه واومأ برأسه بالموافقة، لم تمر سوى لحظات قليلة حتى جيء بفنجاني القهوة، ما أن ارتشف رشفته الأولى، حتى بادرته متسائلة: هل هناك مشكلة ما يا عزيزي.

نظر إلي بعينين متعبتين وقال: كل شيء بخير...

فأضفت قائلة: لا يبدو الأمر كذلك، ألم نتفق ألا نخفي أي أسرار عن بعضنا البعض؟ وأن ما يضر أي واحد منا يضر الطرف الآخر.

نظر إلى بتمعن، ثم أجاب بنبرة فاقدة للأمل: لا أريد أن أزعجك بمشاكلي، أنت رائعة وتستحقين الأفضل... وليس رجل فاشل مثلي...لهذا....

قاطعته بنبرة قلقة: ماذا هناك؟ أرجوك، أخبرني، ليس من حقك أن تقرر مصير علاقتنا بمفردك.

أثارت كلماته المترددة ونظراته التائهة الخوف في نفسي، فخشيت أن أفقده من حياتي مرة أخرى، فتوسلت إليه أن يفصح لي عن كل شيء ويترك لي حرية الاختيار، بعد إلحاح طويل مني، أردف بنبرة متألمة: إنني مهدد بالطرد من وظيفتي، لا أفهم ما يحدث معي؟ لقد انطفأت لدي تلك الروح الآسرة في جذب القراء وامتاعهم في مقالاتي الصحفية.

آلمت تلك المرارة بصوته كل شريان قلبي، فصار هاجسي الوحيد هو أن أخرجه من الدوامة التي يتقوقع داخلها، فقلت مهدئة: إن ما تمر به أمر عادي يا عزيزي، وكثير من الكتاب الصحفيين يعانون في فترات من حياتهم من قفلة الكاتب المبدع، ما تحتاج إليه هو فترة استراحة حتى تستعيد روحك المبدعة.

نظر إلى بتمعن، ثم أردف بنبرة متألمة: أعلم ذلك يا عزيزتي، لكن السيد إسماعيل البيضاوي له رأي آخر، كما أن هناك الكثيرون من الوصوليين يتصيدون الأخطاء لي، وينتظرون بفارغ الصبر لحظات أفولي حتى يسيطروا على منصبي..

فقلت بدون تفكير: لدي حل ولكن مرتبط بموافقتك عليه.

ارتسمت على شفاهه ابتسامة باهتة وهو يقول: وما هو هذا الحل السحري؟

فقلت بنبرة جادة: سأنوب عنك وأحرر كل مقالاتك الصحفية في هذه الفترة العصيبة من حياتك...

فقاطعني غاضبا: ما هذا الهراء الذي تقولين يا فائزة؟ بالطبع، إنه اقتراح مرفوض بشكل قاطع.

أجبت محاولة إقناعه: إذن فأنت لا تحبني، ألست تلك القطعة من قلبك كما تلقبني؟

وضع يده على يدي وهو يقول بنبرة ودودة: بل أنت كل حياتي، أرجوك افهميني، لا أريد أن أعذبك معي.

فقلت هذه المرة بإصرار شديد: دعني أساعدك يا عزيزي، أرجوك، لا تحرمني من أن أكون معك في السراء والضراء.

بعد دقائق رضخ الرجل لتوسلاتي وقبل بالعرض، احسست بالنشوة وأنا أرى تغير تقاسيم وجه حبيبي من العبوس إلى الابتهاج، وذهلت من القوة التي تملكتني حتى أقنعته برأيي، فتذكرت أن تلك المرأة القوية التي فعلت ذلك ما هي إلا امرأة عاشقة و مستعدة أن تضحي بأي شيء من أجل محبوبها، فابتسمت.

لطالما آمنت بأن الحب لكي يعيش لابد من التضحية والألم، ولابد من أن نجعل من أنفسنا علامة مضيئة من أجل من نحب، ولو كان ذلك على حسابنا الخاص، فما بالك بصلاح أرلان، الذي كنت متعلقة به لدرجة الإدمان.

(06)

هناك حكمة يابانية تقول بأن الحظ يأتي للبيت الذي يضحك أفراده، وهذا هو الحظ يقتحم منزلنا أخيرا، وذلك بعد سيل من المعاناة في الشهور التي مضت، فصار قلبي يخفق ضحكا وأنا أرى أبي يتحسن بشكل ملفت وألمح تلك الإشراقة تحي من جديد وجه أمي الذابل، خاصة بعد أن استأجرت حانوتا صغيرا بالحي الذي نقطن به من أجل البدء بمشروعها الصغير في بيع مختلف الفطائر والحلويات بأشكالها، وحتى العمود الخاص بالآنسة كآبة كان يعرف نجاحا جماهيريا لا مثيل له، حتى صارت الجريدة بفضله تتلقى الآلاف من الرسائل والتعليقات، و حاولت مجموعة من وسائل الإعلام المختلفة أن تنبش وتتحرى عن محرر هذا العمود وقدم البعض منها إغراءات مادية لرئيس التحرير بجريدتنا حتى تحتكر لقاء حصريا مع صاحب هذا العمود لكنها قوبلت بالرفض القاطع، كان دائما صلاح يقول لنا أن نجاح أي شخصية وهمية نبتكرها يرجع جزء كبير منها لغموض محررها.

مر صلاح من قفلة الكاتب لفترة من الزمن، وكنت خلالها أنوب عنه وأحرر جميع مقالاته الصحفية حتى عاد بريقه بالجريدة.

كان كل شيء على ما يرام، حتى حلت أول ليلة من ليالي تشرين الأول الذي يوافق شهر دجنبر، كنا خلالها مجتمعين حول مائدة العشاء، حتى رن هاتفي المحمول ثلاث مرات، كان قريبا من الكرسي المجاور لأمي، فسبقتني إليه، ولكن ما أن رأت اسم المتصل المدون عليه، حتى علت وجهها علامات السخط وهي تمدني به، أخذته منها وما أن رأيت رقم المتصل حتى توردت وجنتاي إحراجا منها، لم أكن أتمنى أن يكتشف سري بهذه الشكل، استمر الهاتف بالرنين وهو بين يدي، حتى أردفت أمي بالقول: من العيب ترك المتصل ينتظر كل هذا الوقت الطويل.

نظرت إليهما وقلت موضحة: إنه اتصال من الجريدة، سأذهب وأجيب من غرفتي.

جعلتني نظرات العتاب واللوم المرتسمة في عيني أمي، أشعر بالخجل من نفسي، وتمنيت لحظتها، لو تفتح الأرض وأختفي من أمامهما، لم ينقدني من ذلك الموقف المحرج سوى صوت أبي وهو يقول: عساه خيرا يا ابنتي.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر والنصف ليلا، أغلقت باب الغرفة بإحكام، حتى أتحدث بكل ارتياح مع صلاح، ثم ضغطت على زر الإجابة، فإذا أتفاجأ بأصوات موسيقى صاخبة، كأنها حفلة صاخبة بالموسيقى والزوار، انتظرت قليلا وعندما لم أسمع صوته، بادرت بالقول: أين أنت؟ ما بك لا تجيب يا عزيزي؟

كانت الصدمة قويا لي وأنا أسمع صوتا أنثويا يخاطبني بنبرة مائعة: أعتذر منك يا سكر بنات، إنه ليس عزيزك من يتصل....

قلت وأنا غير مصدقة: ومن أنت؟ وأين هو صلاح؟ وأين...

قبل أن أنهي حديثي الموجه إليها، سمعت همسات وضحكات ساخرة عبر سماعة هاتفي، لأكتشف أن المرأة التي تحادثني لم تكن بمفردها، وقالت المرأة الأخرى بأسلوب قذر: هيا أخبريها أيتها السافلة، أين هو رجلها العزيز..

ما أن أنهت الأخيرة حديثها حتى تسللت من شفاه مرافقتي على السماعة قهقهة مشبوهة، تدل على أن هذا هو الحوار المتداول بينهما في العادة، ثم قالت بنبرة ساخرة: وماذا سأخبر، هذه الساذجة؟ هل أخبرها أن رجلها الوسيم كان معنا في هذه العلبة الليلية، يحتفل بالترقية الجديدة بدل من أن يكون معها؟

ثم ضحكتا بصوت مسموع، أحسست في تلك اللحظة بمشاعر ما بين الحزن والخذلان، وقلت في نفسي " لقد كسرني مرة أخرى"، وعندما عدت لرشدي ترجيت تلك المرأة باكية: أرجوك دعيني أتحدث معه قليلا.

أشفقت المرأة لحالي، فتنهدت وقالت: إنه لا يستحق دموعك الغالية يا فتاة...

فقاطعتها مرة أخرى: أريد أن أسمع صوته مرة واحدة.

صمتت من جديد للحظات، كأنها مترددة فيما ستقول لي، حتى أقحمت المرأة الأخرى نفسها بالقول بنيرة غاضبة: هيا يا ريتا، فلتصارحي هذه الغبية بالحقيقة، أخبريها أنه نسي هاتفه المحمول في الملهى الليلي المدعو إيزابيلا وهو يغادر مسرعا يلاحق الساقطات، أخبريها أنه ليس بالرجل المناسب لها...أخبريها أنه مجرد سارق مشاعر متلاعب.

وضعت سماعة الهاتف بعيدا حتى لا أسمع المزيد من ذلك الحوار المؤلم وبكيت، انتبهت المرأة التي ترافقني على السماعة لأنيني، فقالت بصوت هامس: يكفي يا كارينا، إن المسكينة تبكي.

فصرخت فيها المرأة الأخرى بنبرة قاسية: الأفضل لها أن تبكي اليوم بدلا من البكاء الدائم، هات تلك السماعة، سأخبرها عن حقيقة ذلك الوغد، وتعلم أنه أكبر قواد للنساء...دعيني أساعدها حتى تفر بجلدها قبل أن تصبح ضحية مثلنا.

فصرخت فيها ريتا بنبرة خائفة: أسكتي أيتها الحمقاء، ألم يكفيك هذه المشاكل التي نعيشها.. فأجابتها كارينا بنبرة غاضبة: أليست هذه هي الحقيقة؟ لماذا أنت دائما جبانة يا ريتا؟ إنه لا يخيفني...أعطني الهاتف...

فجأة نشب بينهما صراع قوي بينهما، أنهى معه المكالمة الهاتفية، كنت في شبه صدمة، كان كل شيء واضحا أمامي، كل من يعرفه يراه وحشا بشريا إلا أنا، الكل يكرهه إلا انا، أعماني الحب حتى غفرت له كل هفواته وأخطائه معي، إذا صح ما سمعته أذناي في هذه الليلة، فإنه ليس خائنا فحسب بل إنه أقذر إنسان مر في حياتي.

بعد ليلة باردة مليئة بالدموع، فتحت عيناي بصعوبة، لأتفاجأ بأمي بوجهها المتجهم بجانب سريري، كنت أدرك سبب مجيئها إلي في هذا الوقت المبكر، قمت من سريري متورمة العينين وجلست بجوارها، كانت تنظر إلي بتمعن شديد، فبادرتها بالقول: أرجوك يا أمي، إنني جد متعبة، لا أريد أن أتحدث بأي شيء الآن.

وضعت يدها تحت ذقني، ثم وجهت عيناها بعيني، وأفصحت بنبرة حزينة: هذه الفتاة التي أمامي، لا يمكن أن تكون ابنتي...

قاطعتها بنبرة حزينة: أنا آسفة جدا يا أمي، لم أقصد إخفاء الأمر عنك، كنت أبحث عن الوقت المناسب لأخبرك بكل شيء.

لم تحتمل أمي المزيد من كلماتي، فصرخت في وجهي: أنا لا أفهمك، هل أنت عديمة الكرامة يا فتاة، أم تراك لا ترغبين في الفهم؟ إنه لا يناسبك...إنه لا يشبهك بأي شيء.

اكتفيت بالصمت ورميت بنفسي في حضنها الدافئ، لم تصدني عنها بل ضمتني إليها بقوة و رسمت بقبلة صغيرة على خدي، ثم أضافت بنبرة هادئة: كل ما أتمناه هو سعادتك يا ابنتي، لكنه لن يسعدك أبدا، صدقيني.

قلت بصوت متقطع: أنت محقة في كل شيء يا أمي، إنه إنسان مخادع ويخونني مع بائعات الهوى...لكنني يا أمي ما زلت أحبه، أخشى أن يعتذر مني فأسامحه.

كنت في هذه اللحظات، كالطفلة بحاجة لدفء أمها، أحست بذلك فضمتني إليها بقوة، وهي تقول: تستطيعين فعل ذلك يا حبيبة قلبي، أعلم أنه كالداء لكن أنت من تقررين التعافي منه. كنت دائما قوية بنبضات وكلمات أمي، حتى أنني نمت بحضنها دون أن أعي بنفسي.

وصلت للجريدة في الصباح الباكر، لأجد نرجس من أوائل الحاضرين كالمعتاد، ما أن رأتني حتى ابتسمت متفاجئة، ثم قامت وأعدت لنا فنجانين من القهوة الخالية من السكر، ثم بعد ذلك باشرت كل واحدة منا عملها على جهازها الخاص، وبعد بضع دقائق، أردفت نرجس بالقول: هل هنئت السيد رئيس التحرير بالمنصب الجديد؟

فقلت باستغراب: عن أي منصب تتحدثين يا فتاة؟

ضحكت قليلا، ثم اضافت: يبدو أنك آخر من يعرف، لقد أصبح رئيسنا هو نائب السيد إسماعيل البيضاوي في الجريدة الورقية ل " شوف العالم".

فسألت: ومتى حدث ذلك؟

فأجابت وهي تعدل إحدى مقالاتها على حاسوبها الخاص: بالأمس توصلنا بمراسلة إخبارية عبر البريد الإلكتروني حول ذلك من طرف الإدارة بالجريدة الرئيسية، لا أفهم كيف لم تعلمي بذلك؟

فقلت موضحة لها: لقد انصرفت بوقت مبكر...ولم أطلع على البريد الإلكتروني... ومتى سيشرع في عمله الجديد؟

أجابت بنبرة غير مبالية: من يدري؟ ربما ابتداء من هذا اليوم أو غدا...

تجاوزت الساعة العاشرة صباحا، ولم يأتي للجريدة الإلكترونية، كانت ترقية صلاح هي الخبر المتداول بين الجميع في الجريدة، كانت أغلبية الوجوه مبتهجة برحيله، وتنتظر بفارغ الصبر اسم رئيس التحرير الجديد.

كانت هذه المرة الأولى التي أحس فيها بالشفقة على نفسي، وأنا أنظر لإحدى المقالات التي حررتها بالأمس من أجله، كنت دائما أفضله على نفسي، لكنه كان دائما يفاجئني.

في تلك الأثناء، انتابتني رغبة قوية في الاتصال ومواجهته، لكن باللحظات الأخيرة، تراجعت عن هذه الفكرة المجنونة، متذكرة أنها فرصتي حتى أعود لوعي التام وأبدأ حياة جديدة بدونه.

لم يكد ينتهي هذا اليوم حتى توصلنا بمراسلة إخبارية عبر البريد الإلكتروني من المساعدة الخاصة للسيد إسماعيل البضاوي، تم فيها الإعلان عن تعيين السيدة نرجس بون كرئيسة التحرير الجديدة لجريدتنا، هلل الجميع بهذا الخبر السار وانهالت التبريكات والتهاني على السيدة نرجس من الجميع بما فيها أنا، كان اختيار نرجس لهذه المهمة صائبا، فهي كاتبة

صحفية مميزة، ويكفي أنها أول من يلج الجريدة وآخر من يغادرها، كما أنها صحفية نزيهة ومهنية جدا وأتوقع ازدهارا كبيرا للجريدة في عهدها.

كان أول شيء قامت به نرجس عند اعتلائها كرسي رئاسة التحرير هي عقد اجتماع عمل عاجل، وكان من بين القرارات التي أفرزت لصالحي خلال هذا الاجتماع، أنها وسعت من مساحتي الخاصة في الجريدة، حيث عهدت لي بإنجاز تحقيقات صحفية بلقبي الرسمي مع الإبقاء على العمود الخاص بالآنسة كآبة، كانت دائما نرجس تقدر مجهوداتي الجبارة، وترى أن حصري في شخصية واحدة هي جريمة بحقي، ولن يساهم ذلك في تطوير مسيرتي المهنية.

مر شهر عن اختفاء صلاح أرلان من حياتي، وخلال هذه المدة التي مضت، لم يكلف نفسه حتى بالاتصال وتقديم مبررات لي ولو واهية للدفاع عن نفسه، جعلني أحس بأنني مجرد عابرة من العابرات العديدات في حياته الخاصة، كان طموحه الكبير هو العمل المباشر مع السيد إسماعيل البضاوي وعندما نال مبتغاه تنكر لي.

خلال هذه الفترة الصعبة التي أعيشها وحيدة من دونه، شعرت بفراغ قاتل، فحاولت التغلب عليه من خلال تكريس جهودي للتطوير من مساري المهني، وفي ظرف شهرين صار اسمي علامة لامعة في عالم الصحافة الإلكترونية، لكن بالرغم من ذلك النجاح، كنت أمر بفترات أفقد فيها الشغف في كل شيء، وكانت تراودني أفكار سوداوية يمكن أن تؤدي بأي شخص ضعيف الشخصية لحد الانتحار، وكان بين الفينة والأخرى يراودني الشيطان عن نفسي، ويحرضني على الاتصال به، وعندما أحاول التفتيش عن رقمه، أجد أمي كالملاك قريبة تحرسني من إيذاء نفسي، وتنقدني من دوامة الذل التي أريد أن أسقط نفسي فيها، تزرع في داخلي كل كلمات التعالي والفخر بنفسي، فأنا لا أستحق سوى الثمين في الأشياء أو الأشخاص، وأن الأشخاص مجرد عابري سبيل في حياتنا، ولا أحد يستحق أن ندفن أنفسنا من أجله، فالحياة لا تتوقف من أجل أحد، وأن الكرامة وعزة النفس أهم ما يملك الإنسان.

كان عقلي مقتنع بكل كلمة كانت تقولها لي أمي، لكن قلبي كان يخذلني بين الفترة والأخرى، فالتجت إلى معالجة نفسية لتساعدني، أخفيت هذا الأمر على الجميع حتى على أمي، وبعد جلستين من العلاج، شخصت وضعيتي بالحالة الصعبة للغاية، وصنفت علاقتي بهذا الرجل من العلاقات السامة، حيث أوضحت بالقول: إن هذا النوع من الشخصيات الذي وقعت ضحيته مثل أنثى العنكبوت، فهي لا ترحم من يسقط بين أنيابها السامة، حتى لو كان ذلك الشخص شريكها في الحياة، حيث تغريه مستخدمة كل أساليب الإغواء الأنثوية، حتى

يعشقها حتى يلج بطواعية لوكرها، وبمجرد انتهاء فترة التزاوج معه، تغدر به، حيث تخدره بسمها القاتل فتلتهمه بدون رحمة، وأن شخصيتي الهشة من الشخصيات الجاذبة لهذه الشخصية السادية التي لا تستمتع بحياتها إلا بإذلال شريكها، ولا تغادره إلا بعد أن يصبح منكسرا وفاقدا للثقة بنفسه، ويمكن أن يصل الضحية لمرحلة خطيرة، حيث لا يرى حلاوة الحياة إلا مع هذا النوع من الشركاء، فيبدأ في البحث عن المبررات لكل أفعاله، فيشعر بالذنب ويحس بأنه سبب فشل تلك العلاقة، فيعود ليستعطف وده حتى يقبل أن يعود جزء من حياته من جديد، وفي حالة الفشل في عملية إقناعه بالعودة له يصل لمرحلة أخطر وهي التفكير بالانتحار.

سألتها بقلق: وفي أي مرحلة يمكن تشخيص حالتي يا دكتورة.

أجابت بنبرة هادئة: لا نريد أن نفكر في الأشياء السلبية يا آنسة فائزة، إن الشيء الإيجابي الذي أن يجب أن تدركينه أن تواجدك هنا هو بداية لمرحلة تعافيك.

تركت الأخصائية النفسية سؤالي معلقا، فاحترمت رأيها وتفهمت ذلك، فأضفت متسائلة مرة أخرى: كم المدة التي سوف تستغرقها فترة علاجي يا دكتورة؟

تبسمت بلطف وقالت: أنت من تقررين فترة تعافيك، فكلما اقتنعت بيقين بأن هذه العلاقة ما هي إلا علاقة سامة ومستنزفة لطاقتك، وكانت لك رغبة قوية في التحرر منها، كلما كانت فترة التعافي قصيرة.

نظرت لها بعينين مليئتين بالإصرار وقلت لها: أريد ذلك وبقوة، ولكن أخشى من الفشل، أرجوك، ساعديني.

فأجابت والبسمة تعلو وجهها البشوش: أنا متأكدة من أنك سوف تنجحين، أرجوك، ثقي بنفسك.

لا أدري هل سأنجح في هذا التحدي أم لا، فالحديث هين والعمل شاق، خاصة وأنني ما زلت متذبذبة في مشاعري بين قلبي وعقلي، وكل ما أدركته هو أنه كلما كان بعيدا عني، فإنني أحس بأنني قادرة على أتعايش مع واقعي الجديد، ولكن لا أدري ماذا سيحدث لي لو كان أمامي مرة أخرى.

(07)

يعتقد علماء النفس أن النجاح بكافة أشكاله من أروع المشاعر التي يمر بها الإنسان، لأنه يمنح الشخص إحساسا بالسعادة والرضى ويزيد من ثقته بنفسه، ويساعده على التغلب على المصاعب، ويؤثر بشكل إيجابي على صحته النفسية والعاطفية.

رغم النجاح الذي حققته في فترة وجيزة كصحفية واعدة والفرص التي أصبحت متاحة أمامي، فإنني كنت أحس بأن هناك شيئا ما مفقود في حياتي، والشيء الذي كنت أفتخر به هو قدرتي على التغيير من الوضعية المزرية لعائلتي للأفضل، حيث انتقلنا لمنزل جديد بحي راقي يليق بمنصبي الجديد، وحصلت على سيارة صغيرة حتى تقلني لعملي.

خلال هذه الأيام أيضا شهدت صحة أبي تحسنا واضحا، حيث صار يقضي معظم أوقات فراغه عند أصدقائه القدامى بحي الأحباس، لكن ظلت العلاقة بيننا فاترة جدا، رغم محاولات أمي المتواصلة لإذابة ذلك الحاجز الجليدي بيننا، وكان هو أيضا بين الفينة والأخرى يحاول ترميم العلاقة المكسورة بيننا، فكنت ألوذ بالفرار منه، لأنني لا أزال أعيش في صراع مع نفسي، وأحتاج لمزيد من الوقت حتى أسامحه من قلبي.

حل اليوم الثالث من شهر ديسمبر، وفي هذا اليوم كلفتني رئيسة التحرير بإنجاز تحقيق صحفي حول حادث مميت حدث ليلة الأمس، كانت ضحيته إحدى الفتيات الروسيات العاملات في أحد الملاهي الليلية يدعى بملهى إيزابيلا، أصابني الذهول من هذه المصادفة الغريبة، وتساءلت في نفسي " هل تراه نفس المكان الذي خانني فيه صلاح أرلان؟ أم تراه مجرد تشابه في الأسماء؟ "

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساء، عندما وصلت مع زميلي المصور الصحفي لهذا لعين المكان، كان مقر الملهى يتواجد بأحد الشوارع الرئيسية بمنطقة بوركون، عند دخولنا إليه، تفاجأت للعودة السريعة للحياة الليلية داخله، فالحادث الأليم لم يمر عليه سوى يومان، كانت العاملات فيه من جنسيات مختلفة و معظمهن من النساء الشقروات، كن يتمايلان بأجسادهن النحيفة بشكل مبتذل، وكأن لا شيء وقع هنا في ليلة الأمس، اقتربت وزميلي من إحداهن لجذب أي خيط يربطنا بالحقيقة، لكن بمجرد التعرف على هويتنا يفرون منا والخوف يلمع

بعيونهن، بعد مدة قصيرة من التجوال في الملهى، اقترب منها حارسين أمنيين قويا البنية، و بشكل مهين قاما بصرفنا بعنف إلى الخارج، لنعود للسيارة خائبين.

كان الملهى الليلي مترفا بشكل كبير ومليء بالغموض ومراقبا بأحدث الكاميرات المتطورة، حتى أننا لم نصل إلى هوية مالكيه، انتظرنا في الخارج مترقبين المجهول، حتى حلت الساعة الثالثة صباحا، فبدأ المخمورين يغارون الملهى الليلي واحد تلو الواحد، البعض منهم لم تحمله حتى قدميه، فسقط أرضا مغمى عليه، وآخرون اختاروا المغادرة مع إحدى الفتيات لإتمام بقية السهرة في مكان آخر، حتى نفذ صبرنا، فقال لي زميلي بنبرة مستسلمة:" لا أظن أننا سنصل لأي شيء في هذه الليلة يا أستاذة " كان محقا، لقد شعرت أيضا باليأس من الوصول لأي شيء، فقمت بإدارة مقود سيارتي أستعد للرحيل، حتى ظهرت أمامنا فتاتان شقروتان في حالة سكر وأنهما لتوهما خرجتا من الملهى، كانت واحدة منهما منهارة بالبكاء وهي تخاطب زميلتها بصوت مسموع: لقد فتلتوا كارينا وأخفوا كل الأدلة حتى صارت حالة انتحار. هلعت الفتاة التي ترافقها وهي تنظر باتجاه الملهى ثم همست لها منبهة بلكنة منكسرة: اصمتي يا ريتا، سيسمعونك ويحل بنا ما حل بها؟ ثم أشارت بسرعة لإحدى سيارات الأخرة المارة من قربهما وركبتا فيها، كان صوت الفتاة الأولى مألوفا لي، لكن ذاكرتي خانتني في تلك اللحظة، لحقنا بسيارة الأجرة التي تقلهما، فتوقفت بهما بأحد الأحياء القريبة لذلك الملهى ثم بعد ذلك رحلنا.

بعد أن وصلنا للمكان الذي تركنا فيه سيارة زميلي، قلت له بينما هو يستعد للنزول من سيارتي: الحمد لله أن الليلة لم تذهب سدى، فعلى الأقل تأكدنا من أن الحادث ليس انتحارا كما يروج له، فابتسم ابتسامة باهتة وقال: لكن كيف سنثبت ذلك يا أستاذة؟ أشك في أن تعترف أي منهما بالحقيقة، ألم تلاحظي الرعب الذي يسيطر عليهما.

وصلت المنزل في وقت متأخر، فوجدت أمي بانتظاري، بالرغم من أنها تعودت على تأخري في العمل في أحيان كثيرة، ولكن قلب الأم لا يتركها تنام حتى تطمئن على، تبادلنا أطراف الحديث قليلا ثم توجه كل منا لغرفته طلبا للراحة.

في اليوم الثاني لنا من التحقيق الصحفي، حاولت وزميلي المصور الصحفي علي أن نلج الملهى الليلي مرة أخرى، لكن ما أن رآنا حراس الأمن الخاص حتى تم طردنا، هنا، أدركنا أن من الصعب أن نستقي أي معلومة من هذا المكان المشبوه، فاقترح زميلي أن نبحث عن الحقيقة في مكان آخر، وهنا تذكرت فتاتي الأمس، كان زميلي فاقدا للأمل بأن نستمد منهما

أي معلومة ونحن ننتظر في مكان ليس ببعيد عن الملهى، وفي الثانية صباحا، لمحنا تلك الفتاة الباكية تغادر الملهى منفردة، ثم استقلت سيارة أجرة صغيرة فلحقنا بها، وقبل أن تلج لباب العمارة التي تقطنها، نزلت من السيارة مسرعة وأنا اناديها بصوت مرتفع:" يا آنسة ريتا ، يا آنسة ريتا" استدارت باتجاهي، ثم رمتني بنظرة استغراب وهي تسأل: هل تقصدينني أنا؟ فأجبتها: نعم، أود أن أتحدث معك لفترة وجيزة،فقالت بحيرة: معي أنا... ومن أنت؟ فأجبت: أنا صحفية في الجريدة الإلكترونية " شوف العالم"، ونحن بصدد إنجاز تحقيق صحفي حول زميلتك المقتولة.

وبمجرد أن أدركت الهدف من قدومي، حتى ارتسم القلق في عيناها الزرقاوان واستولى الشحوب على وجهها الصغير، فسألت بعربية منكسرة: ومن أخبرك أنها مقتولة؟

فقلت بدون تردد: لقد سمعت الحوار الذي دار ليلة الأمس بينك وبين زميلتك أمام الملهى...أليست الفتاة المقتولة من نفس جنسيتك؟

ارتبكت بشدة حتى توردت وجنتاها وصاحت بغضب: أنت مخطئة، أنا من بيلاروسيا، و

لن أفيد تحقيقك بشي يا سيدتي، يمكنك استقاء معلوماتك من مركز الشرطة.

قبل أن تبتعد عني بخطوات، أوقفتها قائلة: ألهذه الدرجة غابت الرحمة من قلبك؟ أليست صديقتك التي كنت تبكين بحرارة لفراقها في ليلة الأمس.

تسمرت الفتاة في مكانها من هول المفاجأة للحظات قليلة، وأحسست أن كلماتي اخترقت قلبها بقوة وحركت شيئا في داخله، لكن رغم ذلك لم تتفوه ولو بحرف واحد، شعرت من خلال تأمل عيناها أن هناك شيء ما يمنعها عن البوح لي بالحقيقة، ثم انسحبت باتجاه شقتها، فرحلت خائبة من جديد، وما أن ولجت للسيارة و جلست بالمقعد الأمامي المجاور للأستاذ علي حتى فوجئت بما قال.

- **لقد انتهى التحقيق الصحفي يا أستاذة.**
- **فأجبت بنبرة واثقة: مازلنا في بداية المهمة يا أستاذ علي، أعطني فقط بعض الوقت وسوف أقنعها بقول كل الحقيقة،**

فأوضح يقول: لقد اتصلت للتو بنا السيدة نرجس، وطلبت منا التوقف الفوري عن التحقيق في هذه القضية.

أصابني كلامه بالصدمة، فقلت بنبرة متوترة: لا يمكن أن نتوقف بعد أن وصلنا لهذه المرحلة المتقدمة من التحقيق؟ لما تفعل هذا بنا الآن؟

فأجاب الرجل بنبرة الخبير: إن النبش في بعض الأمور في الحياة قد يكون مؤذيا للشخص، تعلمي ألا تسألي كثيرا يا أستاذة.

لم أستطع تلك الليلة أن أتغلب على الأرق الذي أصابني من كثرة التفكير في الدوافع التي دفعت برئيسة التحرير لهذا الأمر المفاجئ، وهي التي شجعتني على الغوص في غماره، ومدتني بكل الوسائل المساعدة على النجاح في مهمتي، حتى أنني كنت بفارغ الصبر أنتظر انتهاء هذا اليوم حتى أراها وأناقشها في بعض حيثياته.

حل يوم جديد، كان يوما ماطرا وحزينا بالنسبة إلي ولكنه رومانسي بالنسبة للعشاق، ركبت السيارة الخاصة بي كالعادة، وأنا في طريقي للعمل بدا لي وأن هناك من يترقب خطواتي، اعتقدت في البداية أنها مجرد صدفة، نظرت في مرآتي فإذا بها سيارة سوداء من نوع الرونج رونفر تلاحقني، غيرت من وجهتي، فإذا بها ما زالت خلفي، تملكني الخوف الشديد مما يخبأ لي المجهول في هذا الفترة الصباحية المبكرة، اتخذت أسرع مسار يؤدي للجريدة، ما أن وصلت للجريدة حتى اختفت السيارة التي تطاردني، فولجت بسرعة للمكان الخاص بركن السيارات، فوجدت رئيسة التحرير تركن سيارتها إلى جانبي، فاطمئن قلبي، أوقفت محرك السيارة وأسرعت نحوها وعلامات الرعب واضحة على وجهي، اندهشت من شكلي، فسألت: ما بك يا فائزة؟ تبدين وكأنك رأيت شبحا للتو.

سردت لها كل ما جرى معي في الطريق العام، لكنها لم تستغرب كثيرا مما حصل معي، واكتفت بالإنصات فقط، ثم دخلنا معا لمقر الجريدة، وقبل أن تتركني سألتها بجرأة: لقد تفاجأت كثيرا بقرار إيقاف التحقيق الصحفي يا أستاذتي؟ خاصة أنك من شجعتنا عليه، كما أننا لم نكن نحتاج إلا لبعض الوقت حتى نثبت أنها جريمة قتل.

فأجابت بديبلوماسية غير معهودة منها: لقد حسمت الشرطة قرارها بشأن القضية، من الأفضل ألا نضيع المزيد من وقتنا في قضية انتحار واضحة.

فقلت بنبرة مندهشة: ولكنها ليست حادثة انتحار يا أستاذة، لم يكن هذا نفس رأيك من قبل يا أستاذة نرجس؟ هل نسيت ما كنت تقولين لي دائما؟ بأن الصحفي مثل المحقق ينبغي له تفقد كل آثر يمكن أن يتجاهله الجميع، أليس هذا حيفا في حق الضحية المقتولة؟!

فأجابت بنبرة صريحة: أتفهمك يا فائزة، كنت أتمنى أن نستمر في التحقيق، لكن قرار الإيقاف جاء من أعلى سلطة في الجريدة، ولا يحق لنا الاعتراض عليه وإلا سوف نجد أنفسنا بدون وظيفة في الشارع، وكما يقول المثل الشعبي فالحي أبقى من الميت.

لم أجد الكلمات المناسبة لكي أعلق على كلامها القاسي، ولأول مرة، أشعر بالخيبة لأنني عاجزة عن استخدام قلمي للدفاع عن الحق، وفي نفس الوقت خائفة على فقدان العمل الذي أعاد الاستقرار لحياتي، وقلت في سري " لربما نرجس محقة، ففي بعض الأحيان يجب ركن ضمائرنا جانبا، حتى نعيش بأمن في هذا العالم المتوحش".

(08)

إنها نسائم أواخر السنة الميلادية تطل علينا، لتعلن أفول عام بعيوبه وحسناته وانبعاث عام جديد بخباياه القادمة، إلا أنها كانت ستمضي كبقية الأيام السالفة، لولا تلك المكالمة الهاتفية الغريبة من زميلي المصور الصحفي الأستاذ علي، ما أن أجبت عليها حتى أفصح لي بأنه باكتشافه لسر خطير يهم ملهى إيزابيلا وحدد معي موعدا للقائه أمامه في هذه الليلة، كنت حائرة ومشوشة التفكير، خاصة وأنني أحاول نسيان كل ما يتعلق بذلك الملهى، فما فائدة التحري عن مكان يعتبر النشر عنه من المحرمات في الجريدة؟ ترددت في الاعتذار منه لكن الفضول غلبني في آخر لحظة.

الساعة كانت التاسعة مساء، عندما أوقفت محرك السيارة وشرعت أقلب بصري يمينا ويسارا عن سيارة علي أمام الملهى، لكني لم ألمح أي أثر لها وسط تلك السيارات الفاخرة المنتشرة حول المكان، ومن دون سابق إنذار، انفتح الباب الأمامي لسيارتي ثم جلس على الكرسي المجاور لي رجل غريب الشكل ببباروكة شعره الصهباء اللون تغطي شعر رأسه، وكان كالمهرج بملابسه المزركشة البراقة ونظاراته السوداء الغريبة الشكل، وقبل أن أهلع بالصراخ طلبا للنجدة، خلع الرجل عن رأسه تلك الباروكة وهو يقول هامسا: إنه فقط أنا... يا أستاذة فائزة. استغربت من هيئة زميلي وسألته عن هذا التغير المفاجئ له، فأخرج من أحد الأكياس القطنية التي كان يحملها معه باروكة شعر أزرق وقناع يشبه وجه القطة، ثم أضاف وهو يضع تلك الأزياء بيدي: لقد علمت من مصادر خاصة أن الملهى الليلي ينظم حفلا تنكريا في آخر ليلة من كل سنة ميلادية ولا تنتهي هذه الليلة إلا مع بزوغ الفجر، وتشارك فيها شخصيات مرموقة، وأرى أنها فرصة لنا لإنجاز سبق صحفي للكشف عن خبايا ضيوف هذا المكان، ضحكت بسخرية وقلت له: وما فائدة ذلك يا أستاذ علي، إذا كان النشر غير مسموح فيه.

فأجاب: إن النشر ليس ممنوعا إلا عندنا بالجريدة، لكن يمكن أن نروج لمحتوانا في جرائد مجلات أخرى بمقابل مادي.

كان الأستاذ علي محقا، لم أفهم لما لم يخطر هذا الحل على بالي؟ كان بإمكاني كشف حقيقة تلك الجريمة البشعة للرأي العام حتى نزل ذلك التحقيق بلقب آخر، هنا بدأت تخالجني الفكرة

باقتناص الفرصة والتحري عن الحقيقة المفقودة لوفاة تلك الفتاة الروسية التي ظل شبحها يطاردني في أحلامي.

نزل علي من السيارة، فاختفيت و السيارة بعيدا عن الأعين الفضولية، ثم أزلت الحجاب الخارجي عني واكتفيت بوضع باروكة الشعر الأزرق فوق الحجاب الداخلي، ثم ركبت قناع القطة على وجهي و زينت عنقي بإكسسوار من قماش حرير ي ذو لون ذهبي لامع، ثم ارتديت جاكيت طويلة مزركشة ومرصعة بأحجار مضيئة فوق الفستان الذهبي الذي كنت أرتديه في هذه الليلة، وبعد ذلك لحقت بزميلي الذي كان بانتظاري أمام بوابة الملهى، ما أن تحقق من هويتي حتى تبسم متفاجئا، فسألته: هل أنت متأكد من أننا سنلج الملهى هذه الليلة؟

فقال بثقة: لا تقلقي، سوف أتصرف.

وبالفعل دلفنا الملهى الليلي بصفتنا من صحافة المشاهير، كان المكان أشبه بالكرنفال التنكري، وكانت العاملات فيه متنكرات بأزياء مختلفة، فهناك من تنكرت بزي الغزالة و الأخرى بزي الفراشة وأخريات عدن للزمن الفكتوري، حتى الزوار كانوا من العيار الثقيل من مشاهير عالم الفن والسياسة والرياضة وكان معظمهم مكشوفي الوجه، وأنا اتجول بين الضيوف أثار انتباهي ذلك الحوار الغريب الذي كان يدور بين فتاتين من العاملات فيه، حيث همست إحداهما لزميلتها الأخرى: لقد استرقت السمع وسمعته يتحدث في الهاتف عن الليلة الدموية، فارتعبت الفتاة الأخرى وهي تصيح بصوت خافت: يا إلهي! هل سنشهد في بداية السنة المقبلة ظهور إيزابيلا جديدة؟

ما أن لمحت الفتاتان وجودي حتى غادرتا بخطى متسارعة بعيدا عني، مما آثار لدي بعض الارتياب، وتساءلت في سري " ما المقصود بالليلة الدموية؟ هل هي جريمة قتل أم هي مجرد ليلة حمراء؟ ومن هي إيزابيلا؟" لم يصرفني عن تلك الفوضى التي تعم برأسي سوى امتطاء إحدى الفتيات لمنصة الملهى، كانت تشبه في زيها التنكري العنكبوت الأرملة، كان يغطى كل تفاصيل جسدها النحيل حتى لم يكد يلمح منها إلا شعرها الأصهب القصير، تشدو بين الحضور بلغة فرنسية مليئة بالنشاز، وكانت كل العيون منجذبة إليها بإعجاب. وقبل أن تشرع بأغنية أخرى، ولجا الملهى رجلان يرافقهما مجموعة من حراس الأمن الخاص، لتتوقف الموسيقى و تهلل الفتيات العاملات بالملهى بالتصفيقات والهتافات، صعقت بقوة عند رؤية أحدهما، فقد كان آخر شخص توقعته رؤيته، أما الرجل الثاني فقط كان غريبا

الملامح ببذلته الرجولية البراقة وغرابة قبعة القش التي يضعها على رأسه الأصلع، وبغرابة نظاراته السوداء التي تخفي نصف وجهه الأعلى، أحاطت بهما كل فتيات الملهى ترحبن بهما برقصة الطاووس، ثم قعدا في أحسن طاولة في الملهى، كنت تائهة في هذا المشهد الذي لا يوجد إلا في أفلام الفنتازيا، حتى سمعت صوت زميلي يهمس من خلفي: هل تعرفين من هذا الشخص يا أستاذة؟ فقلت بثقة: ومن لا يعرفه؟، إنه السيد رئيس التحرير القديم لجريدتنا، فأردف قائلا: بل أقصد الرجل الآخر الذي يرافقه، فأومأت برأسي بالنفي، فأضاف موضحا بنبرة هامسة: إنه الأستاذ إسماعيل البيضاوي، فصرخت متفاجئة: يا إلهي! ولما كل هذه الأضواء حوله؟ وما هذا الترحيب الأسطوري به، كأنه نجم هذه الليلة؟!

نبهني زميلي إلى ضرورة تخفيض صوتي حتى لا يسمعنا أحد ما، ثم أضاف هامسا: يشاع بأنه أحد المالكين لهذا الملهى الليلي.

بالرغم من ذلك لم أستطع تصديق زميلي بشكل كلي إلا بعد أن أزال ذلك الرجل الغريب نظارته السوداء وقبعته من على رأسه، فأصبت بالذهول مما رأت عيني، وبدأت تنكشف رويدا رويدا كل الحقائق لي، إن للرجل يد في مقتل تلك الفتاة الروسية، يبدو أنه خطير كالأخطبوط يتحكم بكل شيء، وقلت في نفسي " ترى كم من الأسرار يخفي هذا الصحفي المليونير؟ يا إلهيٍ إنني أرى جزء من الحقيقة لكن كيف يمكنني تعريتها للرأي العام"

في تلك الأثناء، عادت فتاة العنكبوت تشدو من جديد، ولم تفارقها لحظة عيني إسماعيل البضاوي، ما إن انتهت الفتاة من فقرتها، حتى تقدم مني صلاح أرلان يقبل يدها ثم توجها لطاولة رئيسه الخاصة، نهض إسماعيل من كرسيه احتراما لها وقبل يدها بشغف، ثم انسحب صلاح أرلان تاركا لهما مساحة خاصة، كانت هذه أول مرة أكره فيها صلاح آرلان، بدا لي بشعا ومقرفا بمهمته الجديدة.

طالت تلك الجلسة الليلية، وكانت السعادة تبعث من وجه إسماعيل البضاوي وهو برفقة تلك المرأة الغامضة، تملكني حب الاستطلاع لمعرفة ما يدور بين الطرفين، فطن زميلي لتلك النظرة العميقة التي أراقبهما بها، فأردف: أنا أيضا صدمت بهذا الرجل. كانت لدي بعض الريبة حوله، وهذه الليلة كشفت لي النقاب عن مصدر الثراء الفاحش الذي يعيش فيه.

تجاهلت حديثه العميق، ثم سألت مغيرة مسار الحديث: ومن هذه المرأة التي برفقته؟

فأجاب بلامبالاة: ومن يدري؟ إنها مجرد لعبة سيمل منها ثم سيرميها كالبقية في سلة المهملات، سأذهب لأخذ بعض الصور من أجل التحقيق الصحفي.

لم أستطع أن ازيح عيناي عنهما، لم ينتبها إلى ذلك بسبب ضجيج الناس والموسيقى الذي يعم كل زاوية من زوايا المكان، وفي تلك اللحظة، ابتعدت فتاة العنكبوت من جواره، فتعقبت خطواتها، ولجت لحمام السيدات، فدلفت خلفها، لم يكن بحمام السيدات أحد، اخترت زاوية غير بعيدة عنها مدعية تنظيم زينتي أمام المرآة، بينما هي ظلت جامدة أمام المرآة الأخرى التي تجاورني، وبعد لحظات نزعت القناع عن وجهها، فاختطفت نظرة سريعة إليها، لأفاجئ بأن فتاة العنكبوت ما هي إلا علياء أختي، كانت كالوردة الذابلة، غابت نسائم الحياة من عينيها، وأنهك التعب تقاسيم وجهها الدائري الصغير، حتى صارت تبدو كالجثة تنتظر نعشها الأخير، كل ما أردته في تلك اللحظة هو أن أختلي بها، فأسرعت بإقفال الباب بإحكام من الداخل، ارتبكت من تصرفي الغريب وارتسمت على عينيها علامات الرهبة، وقبل أن تطلق صيحة استغاثة، خلعت القناع من وجهي وأنا أردد: إنها أنا...إنها أنا أختك فائزة.

نظرت بذهول إلي، فكررت أقول بصوت هامس: إنها أنا...يا صغيرتي..

في تلك اللحظة العاطفية اختفت الكلمات من شفاهها وهي تلقي بنفسها في أحضاني، فضممته بقوة إلي، كانت ترتعش وتبكي بهمس، فسحت لها المجال لتفعل ما تشاء، بعد دقائق معدودة، نأت عني بشكل غريب وهي تقول آمرة: عليك المغادرة من هذا المكان الموبوء يا أستاذة.

فقلت بحسم: ولا أنت أيضا، سنغادر معا يا أختي.

فأطلقت العنان لدموعها، ثم قالت: لقد أصبح الأمر صعبا، لقد أصبحت جزء من هذا الوحل، أرجوك، ارحلي من هنا...

بينما كنا نتحدث، قاطع حديثها صوت نقرات خفيفة على الباب المغلق، فتوسلت إلي بالاختباء في الحمام الداخلي حتى لا يراني أحد معها، وبصعوبة بالغة أذعنت لرغبتها، ثم حاولت النظر خلسة من إحدى الفتحات الموجودة ببابه، غير أن الصورة كانت مشوشة لي، كل ما لمحته هي يد مشعرة تحقن علياء بإبرة غريبة، و صوت رجل يخاطبها بلغة فرنسية " لقد أرسلني إليك السيد إسماعيل حتى أعطيك الدواء الخاص بك" بعد أن أنهى المهمة، سألها:

هل أنت أفضل الآن؟ فقالت له: وماذا عن الدواء الآخر؟ ضحك الرجل بخبث وهو يقول: إنه في غرفة السيد إسماعيل.

ما أن غادر الرجل حتى خرجت من مخبئي والخوف يتملكني عليها، شعرت أن هناك شيئا غريبا يجري معها، فأغلقت الباب بإحكام من جديد، ثم طلبت منها بتفسير فوري لكل ما حدث للتو.

أثرت الصمت التام، ثم أمسكت بيدها بشدة وأنا أكرر نفس السؤال، تخلصت من يدي وصرخت في وجهي: هذا ليس من شانك، هيا ارحلي من هنا.

فقلت لها بنبرة غاضبة: هل أنت مدمنة؟ هيا أجيبني، هل أنت مدمنة!!

أدارت بظهرها إلي، ثم قالت بنبرة باكية: أتركيني وشأني، أنا لا أصلح لشيء بعد الآن، أنا جسد فاسد يتحرك فوق هذه الأرض، من فضلك غادري.

دنوت منها أكثر وقلت بتوسل: هيا بنا نرحل يا علياء، أرجوك اسمحي لي أن أساعدك هذه المرة،

فأجابت وهي لا تزال معرضة بوجهها عني: لقد فات الأوان يا فائزة، صدقيني، لم يعد هناك مفر، سأذهب إليه قبل أن يغضب مني.

سألت بحيرة: ما نوع العلاقة التي تربطك بالسيد إسماعيل البيضاوي؟

وفجأة سمعنا دقات من جديد على الباب المغلق علينا، تلاه صوت أنثوي يقول: إن السيد إسماعيل بانتظارك يا إيزابيلا.

أطفأت علياء الأنوار علينا، ثم رحلت وهي تقول بصوت هامس: إنه زواج بدون عقد.

رحلت علياء مرة أخرى، دون أن تترك لي فرصة لأنقدها من نفسها ومن ذلك المجرم الذي يأسرها، كنت أرغب أن أصرخ عاليا وأنهي هذه المسرحية، لكني تراجعت في اللحظة بفضل رجاحة عقلي، لاسيما في مثل هذه المواقف التي تحتاج منا التحلي بالصبر والحكمة.

رتبت الزي التنكري وعدت للملهى، لأجد زميلي يبحث عني بوجه متجهم وعينين قلقتين بين الحضور، ما أن رآني حتى انفرجت أسارير وجهه ثم دنا مني وقال: أين كنت كل هذا الوقت يا أستاذة؟

لم أرد أن أفصح له عن سر علياء، فاكتفيت بإخباره بأنني كنت أنظم زيي تنكري بحمام السيدات، ثم عدت مرة أخرى أفتش بعيني عن السيد إسماعيل البضاوي لأتفاجأ بطاولته فارغة، فسألت عنه زميلي علي، ليفاجئني بأنه لا يدري عنه شيئا، ارتعبت خاصة عندما اختفت أختي هي الأخرى من الملهى.

أقبل منتصف الليل معلنا أفول سنة وبداية سنة أخرى، انطفأت الأنوار بالملهى وعمت الاحتفالات الصاخبة كل زاوية من زواياه، وبعد أن حلت الساعة الواحدة صباحا عاد الهدوء للمكان، فأفصح لي زميلي مبتسما عن نهاية مهمتنا، ثم ترجاني بالتعجيل بتحرير التحقيق الصحفي وإرساله إليه غدا، فحركت رأسي إيجابا.

غادرنا من ذلك المكان الملعون والإنهاك يطبع كل تقاسيم وجهي، انتبه الأستاذ علي لحالتي النفسية السيئة، فتطوع بقيادة سيارتي الخاصة، كنت تائهة بعيدا طيلة الطريق حتى أنني لم أنتبه للحديث الذي كان يقوله لي.

وصلت كجسد بلا روح، ما ان ولجت للداخل حتى وجدت أمي في غرفة المعيشة تنتظرني على الأريكة وتحيط بها مائدة مستديرة يعتليها فنجانين من الحليب الساخن المنسم بالأعشاب المهدئة للأعصاب، جلست بجوارها وأنا شبه تائهة، انتبهت أمي لمزاجي المتعكر، فسألت: ما الذي يشغل بالك يا حبيبة قلبي؟

فقلت بهستيرية: لقد وجدتها يا أمي؟ إنها هناك...تدعى إيزابيلا...وجدتها شبه ميتة...

نظرت إلى بقلق، ثم سألت بقلق: هل أنت بخير؟!

أجبت بنبرة مرتجفة: انا...أنا بخير يا أمي، إن إيزابيلا من تحتاج إلينا.

لامست رأسي بكفها العريض وسألت من جديد: ومن هي إيزابيلا؟ عمن تتحدثين يا فتاة؟ يا إلهي!! إن حرارتك مرتفعة جدا...

فقاطعتها بصوت مرتجف ومتقطع: إيزابيلا...إيزابيلا ...علياء... إن علياء وإيزابيلا نفس الشخص يا أمي..

كتمت أمي على شفاهي بأطراف أصابعها تمنعني من الحديث، وطوقت خصري بذراعها القوية تحاول أن تعينني على الوقوق على رجلي اللتين صارت ثقيلة الوزن بشكل غريب،

وكأنهما لا ينتميان لجسدي النحيف، ثم قالت: أرجوك، ساعدي نفسك يا علياء، يا إلهي! إنك ترتجفين وتهلوسين، لا أريد أن أفقدك أنت أيضا.

في تلك الأثناء، لم أعد أسمع أو أرى شيئا، ولم أعد أعي حتى بجسدي، لم أستفيظ من تلك الغيبوبة إلا مع شروق يوم جديد، لأجد نفسي بغرفتي ممددة على السرير، وأمي تعالج رأسي بالكمادات الباردة، وأبي يراقبني بعينين قلقتين، ما أن فتحت عيني بشكل جيد، حتى تغيرت ملامح وجههما من العبوس للارتياح، فأردف أبي مهللا: الحمد لله على سلامتك، يا ابنتي.

فسألتهما بصوت متعب: ما الذي حدث لي؟

فأجابت أمي والبسمة تعلو محياها: لقد أصبت بالحمى الباردة، وكنت تهلوسين بأشياء غريبة، إن ما تحتاجين إليه الآن هو فترة إجازة طويلة.

أردت النهوض من السرير لكني عجزت عن السيطرة على أطراف جسدي، قدم لي والدي كأس من عصير الليمون وحبة من الدواء، كانت هو الآخر متورم العينين من قلة النوم، وبعد أن ابتلعت حبة الدواء، قلت لهما: لقد قابلت علياء في الليلة الماضية، إنها ليست بهلوسات بل هي الحقيقة.

ما أن أنهيت الحديث حتى اصفر وجه أبي، فلم ينطق حرفا واحدا، في حين أردفت أمي قائلة بنبرة صارمة: ألم نتفق ألا نذكر هذا الاسم في منزلنا؟

فقلت متوسلة: إنها بحاجة ماسة إلينا، إنها تعيش في جحيم...

قاطعتني أمي بنبرة قاسية: هي ما اختارت تلك الحياة، فلتتحمل مسؤولية اختياراتها.

بدت لي أمي صعبة المراس، فالتجت بالتوسل لأبي: أرجوك، يا أبي، لا تتخلى عنها...مهما فعلت فهي ابنتك...إنها علياء الصغيرة يا أبي...

فتدخل أبي بنبرة هادئة: أين هي الآن؟

فأجبت بخجل: إنها تعمل كمغنية في ملهى ليلي يدعى إيزابيلا.

ما أن أفصحت لهما عن مكان تواجها، حتى تجهم وجه أمي وقطبت حاجبيها فوق عينيها الجاحظتين من هول الصدمة، وقبل أن تنطق بكلمة واحدة، أردف أبي يقول بنبرته الهادئة: إذا كانت تريد التوبة، فمرحبا بها، كلنا خطاؤون وخير الخطائين التوابون.

أحسست بطاقة غريبة تتسرب لجسدي، جعلتني أنهض من سريري لأعانقه بقوة متناسية ضعفي وكل ما فعله بنا في الماضي.

كان دائما أبي الملاذ الأخير الذي يمكن اللجوء إليه عند الوصول للنهايات المغلقة مع أمي، ومهما بلغت قسوتها فهي تلين أمامه، كنت سعيدة وأنتظر بفارغ الصبر أن يأتي اليوم الثاني، حتى أذهب إليها وأقنعها بالعودة لحضن العائلة الآمن.

بعد ليلة شاقة، انخفضت درجة حرارتي، فترجيتهما أن يستريحا فاستجابا لي، وقبل أن أعود لأسترخي من جديد على الوسادة، رن هاتفي الخاص، كان الاتصال من السيدة رئيسة التحرير لتطمئن علي، فأخبرتها بالمرض المفاجئ الذي أصابني، قلقت علي و نصحتني بأخذ إجازة غير محددة الآجال، كانت تربطني بنرجس علاقة أكثر من أخوية، لم تعاملني يوما كرئيسية و مرؤوسة، كنت أكتب بكل حرية في كل موضوع أشاء، بفضلها طبعت بقلمي على البصمات الأولى في طريقي للنجاح، لم أعاتبها طويلا على توقف ذلك التحقيق الصحفي، فهي أيضا عبدة مأمورة لرجل جعل من عالم الصحافة ستارا ليخفي كل ألاعيبه الشيطانية.

لطالما آمنت بقيم ومبادئ مهنة الصحافة، كنت دائما أراها منارة لإنارة العقول، وصوت من لا صوت له، هكذا تعلمنا في معهد الصحافة، وكان قدوتي في ذلك الأستاذ إسماعيل البيضاوي، الذي تأثرت بمقالاته وتحقيقاته الصحفية والحوارات التي كان يجريها مع التلفزيون والإذاعة، كنت شغوفة بهذه الشخصية لدرجة كنت مداومة على حضور كل ندواته وورشاته، لكن بعد ليلة واحدة انكسر كل شيء في داخلي، تلك الصورة التي رأيته عليها بالأمس، جعلتني أفقد الثقة فيه بل وأفقد حتى الثقة بنفسي وفي كل من يحيط بي.

(09)

إنه اليوم الثالث من شهر يناير، كان يوما باردا وممطرا، ارتديت ملابسي العملية وارتشفت فنجانا من القهوة الشهية من يد أمي، وعندما هممت بالمغادرة أوقفني أبي بنبرته الهادئة: هل يمكنك أن تقلين معي إلى حي الأحباس.

نظرت إلى عقارب الساعة بمعصمي، واستغربت منه، فالوقت مبكر على لقاء الأصدقاء القدامى، قرات أمي ما يدور برأسي، فأردفت موضحة: إن والدك سيعمل مع الحاج إبراهيم في إحدى محلاته التجارية هناك.

عادت البسمة أخيرا لوجه أبي القمحي الجميل، وأبرزت تلك اللحية البيضاء الخفيفة والجلباب المغربي التقليدي ذو الخامة الفاخرة الكثير من الوقار والهيبة له، وعادت تلك الروح المتفائلة التي غادرت منذ شهو للبزوغ من جديد، فمن يراه اليوم، لن يظن بأنه مر بلحظات كدنا أن نفقده للأبد.

أضافت أمي تقول: إذا كنت متأخرة يا حبيبة قلبي، فلا داعي لذلك، يمكنه أن يستقل سيارة أجرة صغيرة.

فقلت والبسمة لا تفارقني: إذ لم يكن وقتي لأبي فلمن سيكون؟

اتخذنا طريقا مختصرا، ظل أبي طوال الطريق صامتا، ما أن وصلنا إلى حي الأحباس، وقبل أن يفتح باب السيارة ليغادر، سارعت بتقبيل يده، ثم قلت بنبرة هامسة: أنا جد فخورة بك يا أبي.

تبسم لي وقال: وأنا أيضا يا حبيبة قلبي، فليحمك الله أينما كنت يا غاليتي.

ما أن أدرت مفتاح السيارة، حتى رن هاتفي، فأوقفت السيارة وركنتها جانبا، فإذ بزميلي علي يخبرني بأن لديه خبر صحفي حصري.

فسألت بفضول: هل هي جريمة قتل أم حالة انتحار أم حادث سير؟

فأجاب بنبرة مترددة: لا زلت غير متأكد من ذلك، كل ما أستطيع قوله لك، إنها فتاة في العشرينات ما بين الحياة والموت، وإنها فرصة لنعد تحقيقا صحفيا مشوقا حول حوادث السير.

فسألت من جديد: أين أنت الآن، يا أستاذ علي؟

فأردف قائلا: إنني في المشفى.

فقلت له: أرسل لي العنوان وسأوافيك في الحال.

تفاجأت عند الاطلاع على العنوان واسم المصحة المرسل إلي من طرف زميلي عبر الرسالة الهاتفية، كان اسمها مصحة البضاوي وتقع في حي بوركون، هنا بدأت شكوك المحققة الصحفية تراودني، وتساءلت في سري " هل المصحة في ملكية إسماعيل البضاوي؟ هل لهذا الرجل علاقة بهذا الحادث أم مجرد تشابه أسماء؟

استغرقت حوالي نصف ساعة حتى أصل للمصحة الخاصة، حيث كان زميلي ينتظرني بالقرب من بابها الرئيسي، لم تكن بالقرب من المصحة الخاصة سوى سيارة واحدة للأمن الوطني، ما رآني علي حتى أشار إلى بيده، ركنت السيارة في المنطقة الخاصة بالسيارات، ثم ركضت مسرعة نحوه متحمسة لتعقب أي آثر يمكن أن يوقع ذلك الصحفي المخضرم في شر أعماله.

ما أن دنوت منه حتى قال: نحن أول الصحفيين بالمكان، وهي فرصة ذهبية لنشر الخبر بشكل حصري، تفضلي إلى الداخل يا أستاذة

سألت بنبرة حائرة: هل المصحة في ملكية إسماعيل البضاويٍ؟!

نظرا باستغراب إلي وقال: لا أظن، ربما مجرد تشابه أسماء يا أستاذة فائزة.

قبل أن ندلف معا إلى داخل المصحة، أوصاني الأستاذ علي بالتنكر كصديقة للضحية حتى نتمكن من استقاء معلومات أكثر حول هذا الحادث، وما أن اقتربنا أكثر من موظفة الاستقبال حتى انزوى بعيدا عني، ألقيت التحية على الموظفة، ثم طلبت منها مدي بمستجدات حالة الفتاة التي قدمت في سيارة الإسعاف قبل نصف ساعة، نظرت إلي الموظفة بريبة كبيرة، ثم استفسرت عن هويتي الكاملة، وبطريقة ملتوية أقنعتها بأنني إحدى الصديقات المقربات إليه، فارتسمت علامات الإرتياح على وجهها الصغير وهي تقول: إنها في وضع محرج.

سألتها من جديد: وفي أي حجرة هي الآن؟

أجابتني: إنها بغرفة الإنعاش رقم 8 بالطابق الأعلى.

في تلك اللحظة، أقبل أحد الأطباء نحونا، ثم تجاهلني وهو يخاطب موظفة الاستقبال: هل هناك أي جديد يتعلق بفتاة غرفة الإنعاش رقم 8؟

فأجابت الموظفة بنبرة رسمية: لقد وجدت الشرطة البطاقة الشخصية لها في عين المكان، وستتكلف بإعلام عائلتها بالحادث.

فقال بنبرة متأثرة: نتمنى أن يصلوا إليهم في الوقت المناسب وتتحقق آخر أمنياتها.

وفجأة، استدارت نحوي وهي تقول: إن الشابة هي صديقة ضحية الحادث..

قبل أن يبادر بأي سؤال قد يربك دماغي ويشكك بي، باردته بالسؤال: ما هو وضعها الآن يا دكتور؟

ظل للحظات صامتا، كأنه يفكر فيما سيقول لي، ثم أفصح قائلا: الحادث كان قويا جدا، هي بين الحياة والموت، وتحت رحمة الله، اذهبي إليها.

أحسست بقشعريرة باردة رهيبة تتسرب إلى كل أطراف جسدي، ومشاعر حزن فجائية في داخلي، كأنني قاب قوسين أو أدنى قريبة من الموت، وكان هناك صوت يدفعني لأراها، هرولت كالمجنونة إلي الطابق الأول، فلحقني زميلي علي، وأثناء ذهابي إليها اصطدمت بإحدى الزائرات، ما أن تلاقت نظراتنا حتى احمر وجهها من الخوف فابتعدت عني هاربة، لم تخفي عني تلك العباءة السوداء التي ترتديها عني وجه ريتا التي تعمل في ذلك الملهى الملعون، لم يكن الوقت ملائما لتعقبها، وصلت إلى غرفة الإنعاش المذكورة، ثم استرقت النظر من خلف الزجاج الشفاف لغرفة الإنعاش، لم أستطع أن أتبين وجه فتاة الحادث، لم يظهر امامي سوى جسد مغطى بالكامل بالضمادات الطبية، وهو تحت مراقبة طبية خاصة من إحدى الممرضات الشابات، أشرت إلى تلك الممرضة بيدي لتسمح لي بالدخول، ففتحت لي باب الغرفة، وبعد أن علمت صلتي المزيفة بالضحية، سمحت بزيارتها شريطة عدم إرهاقها بالحديث، ثم تركتني معها في الغرفة، اقتربت من سريرها ببطء شديد حتى لا أوقظها، دنوت أكثر منها، وشجعني زميلي على ذلك من خلف الزجاج الشفاف، كان ما يهمه هو ذلك السبق الصحفي، تفحصت وجهها المليء بالكدمات، فلم أستطع تصديق ما رأيت، فأعدت النظر لوجهها مرة ثم مرتين، فأنهرت على الأرض ويدي على فمي حتى لا تسمع أنين بكائي، إنها نصفي الثاني وحبيبة قلبي، لن تخفي تلك الندوب الغائرة على وجهها عني وجه أختي علياء، ارتابت بوجود أحد بالقرب منها، فصاحت بنبرة متوترة: من...من معي بالغرفة؟ هل ما زلت هنا يا ريتا؟

استغربت كيف أنها لم تراني، فتمعنت بعينيها الزمردتين الواسعتين، فإذا بهما ساكنتان، لم أصدق أن اختي الفاتنة قد صارت مشوهة وكفيفة، فصرت عاجزة عن كبح بكائي بصوت مسموع، ازداد خوفها وهي تسأل بصوت ضعيف وخائف: ريتا...أما زلت هنا؟ ريتا، أرجوك، لا تمازحني هكذا...أم هو أنت؟ ألا يكفي ما فعلت بي؟ أرجوك دعني وشأني.

لامست يدها المصابة برفق بين يدي، لأزرع الأمان في قلبها الصغير، ثم قلت وأنا شبه منهارة: من الذي أذاك يا صغيرتي؟ ما أن سمعت صوتي، حتى اهتز فؤادها من مكانه، ثم أجابت مندهشة: فائزة، أختي فائزة، هل هذه أنت؟ أليس كذلك؟ فطمئنتها بنبرة ناعمة: إنها أنا، لا تخافي يا صغيرتي.

تمسكت بيدي كالغريق وجد ضالته المنشودة، ثم أفصحت بنبرة باهتة: أرجوك سامحيني على كل شيء... كم تاق قلبي لرؤيتي أبي وأمي!

فقلت لها: إنهما قادمان.

فأردفت بنبرة باكية: لا أظن أن الوقت سيرحمني حتى أراهما، أرجوك أخبريهما أنني أحبهما، واطلبي منهما أن يصفحا عني، لقد غرني جمالي، فلوث نفسي وعائلتي، فنلت الجزاء الذي أستحق.

كانت علياء تختفي أمامي بشكل تدريجي حتى تلاشى صوتها الناعم بشكل نهائي، لم أصدق ما يحدث أمامي، ظننتها نائمة، فحاولت إيقاظها، لكنني عجزت أمام شفاهها المغلقة بابتسامة عذبة، ووجهها الطفولي الخال من تعب هذه الدنيا، كل هذا جعلني أدرك أن علياء قد رحلت عنا في رحلة ذهاب بدون عودة.

انهرت على الأرض باكية وغير واعية بمن حولي لدرجة لم أنتبه لدخول كل من الطبيب والممرضة وزميلي علي، فحصها الطبيب بتمعن، ثم أردف قائلا " إن لله وإنا راجعون" غطت الممرضة جثتها بستار أبيض، ثم أمرتنا قسوة بمغادرة الغرفة على الفور، فصرخت فيه: إنها اختي، لا يحق لك أن تمنعني عنها.

تفاجأ الجميع بما نطقت بما فيهم زميلي علي، في تلك الأثناء، دلفت أمي وأبي للغرفة، أزالت أمي بتأثر الغطاء عن وجه علياء، بينما حافظ أبي على جسارة قلبه وهو يقبل جبينها، فانسحب الطبيب والممرضة تاركين لنا الفرصة لتوديعها، لم تحتمل أمي المشهد الذي أمامها، فصرخت تنادي باسمها ودموعها تسيل، فعانقتها بقوة وقلت بتأثر: لقد رحلت عنا

علياء يا أمي، لن نراها أبدا. فابتعدت عني، ثم شرعت بلطم نفسها بقوة وهي تقول: يا ليتني لم أطردها... لقد قتلتها يا محمد... لقد قتلتها يا فائزة....

احتضنها أبي بقوة، ثم قال لها: استعيدي بالله يا حكيمة، إذا جاء الأجل فلن يؤخره أي بشر، ادعي لها بالرحمة والمغفرة.

فصرخت أمي بهستيرية: لا أستطيع احتمال فراقها يا محمد... لا أستطيع يا محمد..

فقام أبي بإبعادها عن حضنه، ثم وضع يده تحت دقنها وحدق بعينيها الدامعتين وقال: يجب علينا نخرج ابنتنا من هذه المصحة اليوم حتى ننظم لها جنازة مهيبة يا حكيمة.

لم أتقبل ما قاله أبي للوهلة الأولى، كان لدي ارتياب من هذه الوفاة الغامضة، رغم أن الطبيب الذي كان مكلفا بعلاجها قد أعلن أنها وفاتها جاءت نتيجة حادث سير عنيف.

فتدخلت بنبرة قوية: لن تخرج جثة علياء من هذا المكان حتى يأخذ المجرم جزاؤه.

نزل الخبر على والدي كالصاعقة، فحل صمت رهيب بالغرفة، فسألني زميلي بنبرة مستغربة: بمن تشكين يا أستاذة؟ نظرت إليه بعينين واثقتين وقلت له: لا أشك، بل متأكدة أن للمجرم إسماعيل البضاوي دخل في كل ما جرى لي أختي علياء.

ذهل الرجل واحمر وجهه وشل لسانه عن الكلام، كنت أدرك أنه لن يكون جزء من هذه الحرب التي يعد فيها الانتصار من المستحيلات في غياب الأدلة المقنعة، كنت أعلم انه لا يريد أن يفقد وظيفته، فهو أب لطفلين ويعيل والدته التي تعيش على كرسي متحرك، أردت أن أحرره من أي إحراج، فأضفت قائلة: إن قضية علياء هي قضيتي، وهي معركة حياة أو موت، لهذا أتمنى أن تنسى أنك رأيتني هذا اليوم يا أستاذ علي. فانصرف دون أي رد فعل.

كان أبي يثق بي ثقة عمياء، فترك لي حرية التصرف بقضية علياء، وقبل أن نغادر المصحة، أردت أن أدفع كل التكاليف المتعلقة بالراحلة علياء، لتفاجئني موظفة الإستقبال بأن إسماعيل البضاوي قد دفع كل المصاريف وأن أمامنا مهلة 72 ساعة كحد أقصى لإخراج الجثة من المصحة، ذلك التصرف جعل الشكوك بداخلي تزداد أكثر وأكثر، فكان أول شيء قمت به هي تقديم شكاية لوكيل الملك ضد إسماعيل البضاوي أتهممه بالقتل العمد لأختي.

لم ينقض إلا يوم واحد على وضعي لتلك الشكاية لوكيل الملك، حتى تلقيت إشعار بالطرد من الجريدة الإلكترونية، لم أستغرب من ذلك، فأنا الآن في مواجهة قانونية مع مالكها، ولم أهتم، خاصة أن لدي احتياط مالي يكفي لثلاثة أشهر أخرى.

ذهبت مع أبي إلى مركز الشرطة، وهناك التقينا ريتا تغادر المركز، رمقتني بنظرة غاضبة، ثم رحلت، كنت من طالبت باستدعائها للإدلاء بشهادة بشأن القضية، كنت أمل أن تهلع فتعترف ضده، وبمجرد أن أذن لنا بالدخول لمكتب الضابط المكلف بالتحقيق وجلسنا أمامه، حتى سألته بنبرة فضولية: لقد رأينا فتاة الملهى للتو، فهل من جديد بخصوص القضية؟

فأجاب الضابط بنبرة رزينة: لقد استدعينا الآنسة ريتا، وحسب التصريحات التي أدلت بها، فالعلاقة الوحيدة التي تجمع بين السيد إسماعيل البضاوي والراحلة علياء لم تكن إلا العلاقة المهنية، وأكدت أنه رجل محترم، ونادرا ما تراه في الملهى، بالرغم من أنه من المالكين الرئيسيين.

صرخت غير مصدقة: إنها كاذبة يا سيدي الضابط.

فتدخل أبي متسائلا: وماذا عن التقرير الشرعي:

بنبرة متأسفة، أجاب: لقد توصلنا بالأمس بالتقرير الشرعي، وحسب ما ورد فيه، فان هناك نسبة كبيرة من الكحول في دم الراحلة علياء، ناهيك عن آثار لوخز إبر لمادة الكوكايين في أجزاء كثيرة من جسدها.

أحسست بالفشل، مما سمعت اذناي، فأردفت مدافعة عن أختي: إن ذلك المجرم هو السبب في إدمان أختي، يا سيدي الضابط، إنها ماتزال لم تتعدى الثانية والعشرين من عمرها، هو من دمر حياتها...أرجوك، اقبض عليه...يجب أن يحاكم...

نظر إلي الضابط بإشفاق، ثم رد بنبرة صارمة: إنها ليست قاصر يا أستاذة، كما أننا لا نتعامل إلا مع الأدلة الملموسة، لهذا فالسيد إسماعيل بريء بقوة القانون من كل التهم المنسوبة إليه.

لم أتقبل هذه النهاية غير العادلة، فصرخت في المحقق متناسية هويته: لا يمكن أن يتم إنهاء هذه القضية بهذا الشكل، سوف أقدم شكاية أخرى ضده بتهمة الاتجار بالبشر وترويج المخدرات.

ومن دون سابق إنذار، انفتح باب مكتبه بقوة، ليدخل منه ثلاثة من حراس الأمن بزيهم الرسمي، فأوقفهم الضابط بإشارة من يده، فتراجعوا للخلف، ثم أضاف بنبرة محذرة: أفهم تأثرك الكبير بوفاة أختك، لكن يجب ان تعلمي أنه يمكن أن ينقلب كل شيء ضدك، لأن كما لك الحق في العدالة، فحتى الأستاذ إسماعيل البضاوي له الحق في متابعتك قانونيا بتهمة التشهير به، هنا، تدخل أبي غاضبا: يكفي يا فتاة، نعتذر منك يا سيدي الضابط، آن الأوان أن ترقد روح أختك بسلام.

قبض أبي يدي بقوة، ثم غادرنا مركز الشرطة، كنت محطمة نفسيا، فلم أقاومه أو أعترض على أوامره، كلما كنت أحس به هو الوهن الشديد والعجز في إثبات براءة أختي

لم ينته هذا اليوم، حتى أخرج أبي جثة علياء من تلك المصحة، ونقلها بسيارة الإسعاف لمنزلنا، ليتم تغسيلها أمام عيني من طرف السيدات المشرفات على المسجد بحيينا، وتم بعد تزيينها بالكفن الأبيض، لتنير كالعروس في ليل زفافها، كانت وردية الخدين وباسمة الوجه، كانت في أبهى صورة أراها فيها، قبلتها قبلة الوداع الأخير، وانسحبت لأبكي بعيدا عنها حتى لا أوذيها.

كانت أسرع جنازة رأيتها في حياتي، لم يحضرها إلا سكان العمارة وبعض الجيران من العمارات القريبة منا، لم تحتمل أمي رؤية ابنتها راحلة عن هذه الدنيا بسيارة الموتى، فبكت أمام باب العمارة، فواستها بعض نسوة الحي، ذلك المشهد الرهيب الذي لا مفر منه، كان أصعب ما يمكن أن يمر به الإنسان في حياته، لم أستطع أن أستوعب أنني لن أراها أو أحدثها مرة أخرى، تجمدت الدموع بعيني، رغم رغبتي الشديدة بالبكاء، أحسست بالدوار، وبأنني بأي لحظة سأنهار أمام الجميع، وانتابتني حالة من الشعور بالغربة والخوف من الوحدة، لم أصرخ بصوتي عاليا، إلا عندما انطلقت سيارة الموتى بعلياء بعيدا عنا، لم أعد أعي بنفسي، كأن قوة بداخلي من تدفعني للركض خلفها، رغم محاولات نسوة الحي الحثيثة لصدي عن ذلك.

مرت الليلة الأولى لنا كئيبة، كان كل منا منعزلا بغرفته، يعيد ذكرياته البعيدة مع علياء، فكل منا يحبها بطريقته الخاصة، لم أستطع أن أغفو تلك الليلة، فنهضت من سريري، لأتوضأ وأدعو من الله أن يسامحها على كل أخطائها، وعند مروري بجانب غرفة أبي، فإذا بأنين بكاء وصوت هامس من خلف الباب، كان ذلك صوت أبي وهو يدعو لها بتخشع في صلاته.

لطالما اعتقدت أن الخذلان والخيانة من أصعب المشاعر المؤلمة التي مررت بهما، لكني أدركت أن فراق الأحياء أهون من ذلك الفراق الأبدي لأقرب الناس لقلبي، وأن تلك المشاعر التي راودتني في لحظات ضعف، ما هي إلا أوهام يصاب بها الإنسان في إحدى مراحل حياته، وأن العلاقة الأخوية من أقوى العلاقات الإنسانية، فالحبيب يعوض بما هو أفضل منه، لكن الأخ والأخت لا تعيدهما إليك الحياة من جديد

(10)

بعد مرور أسبوع على الرحيل الأبدي لعلياء، انقلبت حياتي المفعمة بالطاقة الإيجابية والنجاح إلى حياة بئيسة وقاتمة، فقدت الرغبة في كل شيء وازداد شغفي بالعزلة، حتى صرت لا أميز بين الليل والنهار، وكلما كان يرن هاتفي أطفأه بسرعة من دون حتى معرفة هوية المتصل حتى أعود لعالمي الخاص، حيث ألتقي فيه أختي علياء، فأعانقها بقوة ونرقص معا في حديقتها المزهرة ثم نتسامر أطراف الأحاديث هناك.

في عز الوحدة التي صارت ملاذي الوحيد، انفتح باب الغرفة، لتدلف منه أمي باسمة، يرافقها شاب مهيب البنية بزيه العسكري، قمحي البشري، في العشرينات من عمره ، يتكئ على عكازين حديديتين، لم يكن ليخفى عني ذلك الوجه القمري ولو كان بين ملايين الوجوه، قفزت من السرير غير مصدقة، إنه أخي إبراهيم الصغير، فأسرعت لأعانقه، ضمني إليه بقوة، ثم طبع بقبلة أخوية على جبيني حتى يبعدني عنه بلباقة، لو لم تكن تلك الإصابة برجله اليسرى، ما كنت سأفارقه لحظة، أبعد أحد عكازيه واستند على كتفي الأيسر، ثم توجهنا إلى غرفة الجلوس، حيث كان أبي مستغرقا بحديث مهم مع أحد الشبان، الذي يبدو من زيه العسكري، أنه زميل شقيقي ابراهيم في العمل، ما أن اقتربنا أكثر منهما، حتى صمتا، فأردف أخي إبراهيم يوضح لزميله: إنها أختي الكبرى التي كنت أحكي لك عنها ...وهذا كريم زميلي في العمل..

رسم الشاب الصغير على وجهه الجذاب ابتسامة لطيفة، ثم أحنى رأسه بلباقة كتحية لي، فابتسمت له كالبلهاء، وحدقت فيه بدون خجل، وتمنيت في تلك اللحظة لو لم ترحل علياء وكان لها زوجا، تنبهت أمي للحماقة التي أقوم بها، فضغطت على أصابيع يدي تحذرني مما أفعل، فابتعدت عنه بعيني، لكي أعود لكآبتي من جديد.

أكرمت السيدة حكيمة صديق إبراهيم بقهوة مغربية لذيذة مع طبق من الفطائر التقليدية والكعك الشهي، ثم انطلق ابراهيم يسرد لنا قصة الحادث الذي أصابه، كان ذلك في إحدى الليالي القاتمة، حينما تعرضت القاعدة العسكرية المغربية بجمهورية بنما لهجوم من إرهابيان من أجل الانتقام لمقتل أحد زعمائهم، فكان أبراهيم أول من انتبه لتسللهم داخل القاعدة العسكرية، لينشب صراع بينه وبين واحد منهما، ليرميه الإرهابي الثاني برصاصة أصابت قدمه اليسرى، وعلى إثرها ثم نقله إلى المستشفى العسكري بعاصمة جمهورية

بنما، حيث أجريت له عملية ناجحة، مباشرة بعد ذلك، ثم منحه فترة نقاهة لمدة شهر ثم يعود بعد ذلك لمهمته، بينما زميله كريم فقد انتهت مهمته هناك.

طالت السهرة الليلية وتعالت معها الأصوات والقهقهات، فتعكر مزاجي واشتغل الغضب في داخلي للتخطي السريع للراحلة علياء، فشردت بعيدا عنهم.

انتبه إبراهيم لذلك، فقاطع خلوتي قائلا: ألن تشاركنا الصحفية المرموقة هذه الأمسية الجميلة؟

فاجأني بعلمه بكل كل شيء يتعلق بي، رغم أنه كان غائبا عنا لمدة سنة، ولم تطأ قدمه أرض الوطن إلا قبل ساعتين، فسألته مستغربة: وكيف علمت أيها العسكري، أنني أصبحت صحفية ومرموقة؟

ضحك بصوت مسموع، ثم أجاب مازحا: لدي جاسوس لطيف يخبرني بكل شيء .....

فقاطعته بنبرة كلها عتاب: ألم يخبرك أيضا ذلك الجاسوس بمقتل أختنا علياء؟؟

هز برأسه إيجابا، ثم صرف بنظره بعيدا عني، يحاور زميله العسكري.

فانفجرت فيه غاضبة: ألم تحرك فيك وفاتها أي شيء؟ حتى أنك منذ أن وطئت قدمه بيتنا، لم تذرف ولو دمعة واحدة من أجلها، ألهذه الدرجة كنت تكرهها يا أخي؟

تغيرت تعابير وجه ابراهيم من الفرح للعبوس والغضب، وبشكل مفاجئ، أخرج من جيب سرواله إحدى الجرائد، ورماها بقوة في وجهي، ثم أردف بنبرة قاسية: إقرائي بشكل جيد هذه الفضيحة... لطالما كانت اختك فتاة عاقة ومتمردة، لكن لم أتوقع أن تصل بها الوقاحة أن تفضحنا، لقد أخطأت بحقنا وحق نفسها، فنالت ما تستحق، أطلبي من الله أن يصفح عنها ويغفر لها...

أخفض أبي رأسه خجلا، بينما اغرورقت عيني أمي بالدموع، في حين قمت من مقعدي مغادرة تلك الأجواء التي لا تشبهني.

كان رده قاسيا، وهو الغائب البعيد عنا، ما أن انفردت بنفسي في غرفتي، حتى تفحصت الجريدة المهترئة أوراقها، كانت في ملكية إسماعيل البضاوي وصادرة منذ أربعة أيام، تزينت صفحتها الأولى بصورة مبتذلة للراحلة علياء عُنون بجملة قبيحة كقباحة مالكها" حادث سير مميت لبائعة هوى وهي تحت تأثير الكحول والمخدرات"

كان مقالا مقززا، لم يحترم حتى حق الميت في التوقير، وفي نهايته دُون بالخط العريض " حرر بقلم الصحفي المرموق: علي أرلان" شبه المقال الراحلة بفتيات الليالي الحمراء، الباحثات عن الشهرة والمال، ولمح ببعض الإشارات عن أن اختها صحفية مشهورة، واعدا إياهم بتخصيص مقالة أخرى عنها، ومن شدة الغضب مزقت أوراق الجريدة قطعة قطعة.

بعد تفكير عميق وطويل بمفردي، نهضت من السرير وفي داخلي رغبة قوية لمواجهة ذلك المجرم، وصوتا يردد "" إما براءة علياء أو رحيله الأبدي""، ارتديت فستانا أسودا ومعطفا شتويا، وغطيت رأسي بحجاب أسود، وخبأت سلاح أبيض في حقيبة يدي، كانت تمطر بغزارة وأنا بأقرب شارع من حينا، أنتظر سيارة أجرة تقلني إليه، بعد مرور ثلاثون دقيقة من الانتظار الطويل، أبت أي سيارة أجرة التوقف لي، أحسست بأن كل شيء يعاندني، سئمت الانتظار، فعدت من حيث أتيت.

بعد ذلك الجدال الحاد مع أخي إبراهيم، صارت علاقتنا جافة، حاول بكل الطرق إعادة الود بيننا، لكنني كنت أتجاهل أحاديثه، بل حتى كنت أتجنب اللقاء به، لكن لن أنكر أن وجوده بيننا، قد أضاء من جديد حياة السيدة والسيد الدرقاوي

مر شهر بسرعة، وانتهت فترة نقاهة إبراهيم، فجاء يطرق بابي، لم أرغب برؤية وجهه، وقبل أن يهم بالمغادرة، أردف بنبرة هامسة: كنت أريد ان أودعك، قبل أن أعود إلى جمهورية بنما، فلا أدري ما يخبأ لي القدر، أسوف أراك مرة أخرى أم لا؟

رغم تأثري بكلماته الوداعية، فإن الغضب أعماني، فتجاهلته، بعد لحظات من الصمت، سمعت خطوات أقدام تبتعد بعيدا عن غرفتي، عندها لم أشعر بنفسي إلا وأنا أفتح باب غرفتي، وأركض خلفه، ثم أعانقه بقوة، فبكينا معا، ثم سألته بشكل مفاجئ:

- **أيمكن أن تصفح عنها يوما؟**

فاغرورقت عيناه وهو ينظر إلي، كأنه يترجاني بأن لا أنبش أكثر في جراحه، لكني لم أستسلم، فأضفت مستعطفه إياه: أرجوك حاول أن تسامحها، أرجوك حاول... ولو مرة واحدة...

أومأ برأسه بخجل، ثم أجاب بنبرة حزينة: إن جرحي عميق يا فائزة، سأبتعد من هنا حتى أنسى، أرجوك لا تجبريني الآن على شيء لا أستطيع تحمله.

كان إبراهيم صادقا مع نفسه، فهو لم يحتمل تلك الأحاديث السامة والنظرات المتهمة من كل شخص يعرفنا ويعرف قصة علياء، خاصة بعد ذلك التشهير القبيح بسمعتها في كل الجرائد، للآسف، نحن في مجتمع شرقي، لا يرحم من يخطئ.

بعد أيام من الجمود، رن هاتفي عدة مرات، كان رقما مجهولا، وبعد تردد، ضغطت على زر الإجابة، ليبادرني صوت رجولي لا أعرفه بنبرة فخمة: تحية طيبة لك أستاذتي، وعندما استفسرت عن هويته. أردف قائلا: معك الأستاذ يحي الزنتي رئيس تحرير جريدة " لا شيء غير الحقيقة"...لقد علمت من مصادر الخاصة أنه تم الاستغناء عنك في جريدة الأستاذ البضاوي، لهذا يسرني أن تكون جزء من طاقمنا الصحفي، إذا كنت متفرغة بطبيعة الحال يا أستاذتي.

فأجبت بدون تردد: متى تريد رؤيتي يا سيدي؟

فأضاف قائلا: الآن، إذا لم تكون منشغلة بشيء ما.

فقلت: حسنا.

لم أكن لأضيع من بين يدي هذا العرض المغري من جريدة لها سمعة مرموقة ومنافسة قوية لجريدة إسماعيل البضاوي، ابتسمت من ترتيبات القدر، وتساءلت مع نفسي عن النوايا التي تدفع بهذا الرجل حتى يفكر بي في هذه الفترة العصيبة من حياتي، أتراه يبحث عن السبق الصحفي من خلالي؟ أم تراه يريد أن يجعل مني سلاحا فعالا في حربه الباردة مع عدوه اللدود؟

أرسل لي الرجل العنوان عبر رسالة نصية، كانت هذه الجريدة أيضا بحي بوسيجور، ولم يكن يفصلها عن جريدة إسماعيل البضاوي سوى شارع واحد، وصلت إلى هناك، كانت مؤسسة إعلامية ضخمة تتكون من طابقين، بالطابق الأول، كانت هناك موظفة الاستقبال التي رحبت بي بابتسامتها اللطيفة، والتي كانت على علم مسبق بمجيء إليهم، وكانت تضم أيضا حوالي خمسون موظفا وموظفة ما بين الجريدة الإلكترونية والورقية، أما الطابق الثاني، فضم كل من مكتب رئيس التحرير وثلاثة أستوديو هات واسعة و مجهزة بأحدث الديكورات والوسائل الحديثة، لتقديم مختلف البرامج التي يتم تقديمها على القناة الخاصة بهم في اليوتوب.

بعد أن ركبت المصعد، كما أرشدتني موظفة الاستقبال الشابة، توقف بي في الطابق الثاني وانفتح بابه، لتظهر أمامي امرأة حسناء، في آواخر العشرينات، تبدو من مظهرها الخارجي أنها أجنبية عن البلد، كانت فاتنة بشكل غريب بعينيها الرماديتين الواسعتين وشعرها الأصهب القصير، هيفاء القامة ومنحوتة الجسد، أنيقة بفستانها الأزرق السماوي اللون الذي يصل طوله إلى ما فوق ساقيها الجميلتين، بدت متعجرفة وهي تقدم نفسها بلكنة عربية متلعثمة على أنها المساعدة الخاصة للسيد يحي الزنتي، حدقت بي من أعلى رأسي إلى أدنى قدمي، قبل أن تطلب مني مرافقتها، اتخذنا ممرا واسعا وطويلا، وسرنا فيه، ما أن وصلنا إلى نهايته، حتى ظهرت أمامنا غرفة مكتب رئيس التحرير، الذي يمكن تمييزه عن بقية الغرف الأخرى، ثم تركتني بمفردي باتجاه غرفة مكتبها الذي لم يكن يبعد عن مكتب رئيسها إلا بمساقة قصيرة، وبشكل آلي انفتح لي الباب، فتسمرت من الدهشة عند رؤية غرفة المكتب التي تدار منها جميع العمليات التحريرية لهذه المؤسسة الإعلامية المتنوعة، كانت واسعة بتوسطها مكتب عريض من خشب الصنوبر، تعتلي سطحه أحدث الوسائل الحديثة التي تساعد على العمل بكل ارتياح، بالإضافة لكرسي ضخم دوار مصنوع من جلد عالي الجودة، تجاوره خزانة خاصة بالملفات، ثم أربعة كراسي ضخمة مبطنة للزوار تقابل مكتبه. وغير بعيد عنه، تم وضع أريكة طويلة متصلة ومبطنة من الجلد الفاخر تتوسطها مائدة مستديرة فاخرة من الكريستال، يمكن أن تستخدم هذه الأريكة لاستقبال الزوار او لأخذ قيلولة بعد فترة الظهيرة، و كان حتى اختيار اللون الأزرق كطلاء لجدرانها في محله، إلا أنها لم تتوفر إلا على نافذة زجاجية زرقاء اللون، ابتسمت للرفاهية التي يعيش فيها هذا الرجل، وفي ظل انبهار بروعة المكان، سمعت صوت أقدام قادمة من خلفي، فاستدرت نحوها، فإذا بشاب جذاب أمامي، أنيق بلباسه الكلاسيكي، يوحي بانه بأواسط الثلاثينات، أسود الشعر، برونزي البشرة، أطول مني قامة، يرتدي نظارات سوداء.

ما أن أزال نظارته السوداء، والتقت عيننا حتى سحرت بلون عينيه العسلي الفاتن، انتبه لما يدور في عقلي، فابتسم بمكر، ثم أردف بنبرة هادئة: أرجوك، تفضلي بالجلوس يا أستاذة، أتمنى ألا تكوني انتظرتني كثيرا.

اخترت أحد من تلك الكراسي المبطنة المقابلة لمكتبه وجلست، أزال بدلته وعلقها خلف كرسييه الضخم، ليبرز قميصه تفاصيل جسده الرياضي، تأملته بإعجاب دون أن ينتبه لذلك، كان أوسم رجل رأيته في حياتي، فابتسمت مع نفسي، لأنني تأكدت أنني وأخيرا تخطيت ذلك الماضي ، جلس هو الآخر على كرسيه، ثم نظر إلي لتوان بتمعن، أحسست بالحرج من

وجهي الشاحب وملابسي الشتوية السوداء، و تمنيت لو لم يراني بهذه الهيئة الكئيبة، في تلك اللحظة، ظهرت من جديد تلك المرأة الصهباء، تحمل بين يديها صينية من الكريستال اللامع تعتليها فنجان من القهوة وقنينة ماء معدني، ثم رسمت بابتسامة صغيرة على شفاهها المثيرة وهي تضعها بالقرب منه فوق سطح مكتبه، فتبسم لها وهو يقول: شكرا لك يا أنستانزيا، أين هو العم موحا؟ فأجابت بعربية منكسرة: العفو يا عزيزي، إن العم موحا مشغول بمراقبة عمال الصيانة، أتريد شيئا آخر يا عزيزي؟ فأحنى رأسه بالنفي، فانسحبت مغادرة، لأدخل في صراع مع نفسي " يا لها من خبيئة! إنها تحاول أن ترسل لي رسالة مشفرة بأن ما بينهما عميق جدا، وما شأني بهما؟ إن آخر شيء أفكر به هو الإيقاع برجل" لم يقاطع أفكاري إلا صوته الفخم وهو يقول: أنا لم أسمع منك جوابا بنعم، فهل تعنين بكلمة " حسنا" أنك قبلت عرض العمل معنا، فأجبته بثقة تامة: يشرفني العمل معك يا أستاذي، لكن لدي شرط واحد.

لمعت في عينيه علامات الدهشة، ثم سأل: وما هو هذا الشرط يا أستاذة؟

لم أنتظر لحظة واحدة حتى أفصح عما بداخلي، فأجبت: أريد أن يكون أو تحقيق صحفي ينشر لي بجريدتكم، يتعلق بفضائح الصحفي اللامع إسماعيل البضاوي...

بدت علامات الحيرة على وجهه، فصمت، وكأن الكلمات انحصرت في حلقه، فأضفت قائلة: هذا شرطي الوحيد يا أستاذي.

بعد تفكير عميق، أردف الرجل بنبرة هادئة: نحن دائما مع إظهار الحقائق للرأي العام، مهما يكن ذلك الشخص وكيفما كان موقعه في المجتمع، لكن لن أنشر هذا التحقيق إلا بوجود أدلة ملموسة ومقنعة.

فأجبت بنبرة متحمسة: لدي أدلة مقنعة يا أستاذ، كل أود هو إنارة الرأي العام بحقيقة هذا المج...الرجل..

سحب الرجل ملفا من أحد رفوف خزانته، ثم فتحه أمامي وأخرج منه عقد العمل الخاص بي وقدمه لي، وبعد أن تمعنت في بنود العقد، فاجأته بالقول: لن أوقعه حتى أنهي هذا التحقيق الصحفي وأنشره بجريدتكم.

بدا من تعابير وجهه المتجهم أن هذه المساومة استفزته، فصرح بحزم: حسنا، كما تشائين يا أستاذة، وأنا أيضا سأمهلك أسبوعين، إذا لم تنجزي هذا التحقيق الصحفي، فاعتبري هذا العرض ملغي.

فقلت ثقة: حسنا، لنا موعد بعد أسبوعين يا أستاذ.

لم أدرك أنني ارتكبت خطأ إلا متأخرة، ذلك الحماس الزائد أعمى بصيرتي على أن المهمة ليست سهلة بتاتا، مما جعل هذا الرجل يعاقبني بهذه الطريقة.

تلقيت أول خيبة في بداية رحلتي الانتقامية من أقرب الأشخاص الذين كنت أثق فيهم، ولعل ردة فعل زميلي السابق المصور الصحفي علي كانت أكبر صفعة تلقيتها، خاصة عندما طلبت منه أن يرسل لي كل الصور التي التقطها ونحن بالملهى الليلي، حيث قال لي والخوف والارتباك يرافقان كل كلمة من الكلمات التي ينطقها: إنني جد آسف يا أستاذة فائزة، لقد ضاعت كل الصور من كاميراتي الخاص،

كان العذر أقبح من الذنب، ليسقط الرجل من عيني، وبعد أسبوع من التقصي عن الحقيقة المفقودة، لم يبقى لي كأمل إلا فتاة الملهى البيلاروسية المدعوة ريتا، وفي إحدى الليالي الشتوية القاتمة، انتظرتها بسيارتي أمام العمارة التي تقطن بها، كانت تشير الساعة إلى الثانية صباحا، عندما نزلت من سيارة أجرة صغيرة، انتظرت قليلا، حتى أحسست أنها وصلت لشقتها بالطابق الأول، فأسرعت للحاق بها، فانتبه إلى حارس العمارة، بها، فأوقفني، ثم سأل عن هويتي وعن مقصدي، فأخبرته أنني إحدى صديقات الآنسة التي دخلت لتوها، وأنني أريد أن أفاجئها، ومن حسن حظي أنه لم يكن ذلك اليوم أمام باب العمارة، فسمح لي بالصعود، وبينما هي تهم بفتح باب شقتها، فاجأتها من الخلف قائلة: أريد ان أتحدث معك قليلا.

بدا عليها الارتباك والخوف عند رؤيتي، فسقط المفتاح من يدها، التقطته بسرعة من الأرض، ثم أعطيتها لها، وأنا أقول لها بنبرة توسل: أرجوك، دعينا نتحدث، وأعدك أنها ستكون المرة الأخيرة التي ترين فيها وجهي.

نظرت إلى بتمعن، والخوف لازال يسيطر على كل طرف من أطراف جسدها النحيل، ثم أجابت بنبرة قاسية: كل ما لدي، قلته في مركز الشرطة، عندما طلبتني كشاهدة في القضية.

كان ردها قاتل بالنسبة إلي، فسقطت تحت قدميها متوسلة، وأنا أقول: أرجوك، ارحمي ضعف إنسانة لا تزال تبكي أختها، أنقدي فتيات أخريات يمكن أن يسقطن ضحية لذلك المجرم...أرجوك يا ريتا...ساعديني... حتى تتحقق العدالة.

نظرت مليا إلي، وبعد تفكير عميق، سمحت لي بالدخول لشقتها الصغيرة، وعندما جلسنا على الأريكة بغرفة المعيشة، سألت بنبرة متعجلة: ماذا تريدين أن تعرفي؟

فأردفت قائلة: أريد أن أعرف كل الحقيقة، كيف قتلت أختي؟ وكيف قتلت باقي الفتيات الأخريات؟

أجابت بنبرة واثقة: إن أختك لم تقتل على يد أحد، بل انتحرت بسيارتها الخاصة...

فقاطعتها بالقول: إن علياء عاشقة للحياة ولن تفكر بالانتحار أبدا، إنك لا تعرفينها.

تنهدت طويلا، وقالت: كلنا كنا عاشقات للحياة، ولكن بمجرد ولوج هذا الملهى القذر، تتحول حياتنا لجحيم، فما بالك بحياة إيزابيلا؟!

فسألت باستغراب: ماذا تقصدين بحياة إيزابيلا؟

ابتسمت بحزن وقالت: إيزابيلا هو اللقب الذي يطلقه إسماعيل البضاوي على أجمل الفتيات العاملات في الملهى بعد أن يجعل منها عشيقة له، وأختك كانت من الفاتنات اللواتي أحضرهن علي أرلان للملهى، فَسُحر بها إسماعيل البضاوي بجنون، فأغدق عليها بالمال والملابس والمجوهرات الفاخرة حتى صار يملكها بطواعية، وبعد ستة أشهر سئم منها، ومن أجل أن يتخلص منها، جرفها إلى عالم الإدمان، ثم شرع في استغلالها أبشع استغلال من أجل تلبية رغباتها كمدمنة، فكان يراهن بجسدها في قاعات القمار وفي إنجاح مشاريعه الخاصة، وهذا للأسف كان حال كل الفتيات اللواتي يصبحن عشيقات السيد لمدة مؤقتة.

لم أستطع استيعاب ما قالته لي ريتا، وقلت غير مصدقة: هذا مجرد افتراء، أنت لا تعرفين علياء جيدا.

وبشكل مفاجئ، انصرفت لغرفة نومها، وبعد دقائق، عادت وهي تحمل بيدها ظرف أصفر صغير، ثم قالت وهي تضعه بين يدي: أرجوك افتحيه وأخرجي الرسالة منه.

نظرت إلى الظرف بتوجس شديد، وبعد تردد سحبت منه الرسالة المطوية، ثم مددتها، لأفاجئ مما هو مُدون عليها " عزيزتي ريتا، عندما ستقع هذه الرسالة بين يديك، أكون قد ارتحت من العذاب والعبودية الذي أعيشها، الوداع"

أجهشت بقوة وأنا أمعن النظر بخط علياء الذي لن يخف عني، تركتني ريتا أبكي كما أشاء، وبعد أن هدأت، قالت لي: لقد أخبرتك كل ما أعرفه عن قضية علياء.

فتدخلت متوسلة: أرجوك، تعالي معي لمركز الشرطة، وأخبريهم بما قلت لي للتو،

ارتجفت الفتاة من الخوف وقالت بتوسل: أرجوك، ارحلي من هنا... أرجوك...

لم أجادلها أكثر وغادرت بصمت بعد أن تلقيت للتو صدمتين، صدمة انتحار علياء وصدمة معرفتي بعلاقة علي آرلان بكل ما حدث معها.

قبل يومين من نهاية المهلة المحددة للتحقيق الصحفي، رن هاتفي، نظرت إليه، فإذا به السيد يحي الزنتي رئيس تحرير جريدة " لا شيء غير الحقيقة"، بعد ان أطمأن على أحوالي، فاجأني قائلا: لم يتبق من المهلة سوى يومان يا أستاذة فائزة، هل ننشر إعلانا تشويقيا عبر وسائل التواصل حول التحقيق الصحفي.

لم أرد أن أعترف له بفشلي في جمع خيوط الحقيقة، فأجبت بعناد: نعم، يمكنك ذلك أستاذي.

في المساء، ولجت كالعادة لصفحتي الخاصة على مواقع التواصل الاجتماعي، لأفاجئ بالإعلان السريع لجريدة " لا شيء غير الحقيقة" عن قنبلة من العيار التي تنتظر الرأي العام في نهاية هذا الأسبوع، حينها، أحسست بالخجل من نفسي، لتوريط ذلك الرجل الذي آمن بي، ووضع كل ثقته بي، ففشلت ولم أكن بالشجاعة الكافية حتى أوجهه بالحقيقة.

انتبهت أمي للتوتر الذي أعيش فيه، ونحن على مائدة العشاء، وما أن غادر أبي لغرفته، حتى سألت بقلق: أهناك خطب في العمل الجديد؟

لم أعرف كيف أرد على سؤالها وأنا التي سبق وأخبرتها بأنني وقعت على عقد عمل مع جريدة أخرى حتى لا تمنعني من الخروج في الأوقات المتأخرة من الليل، وعندما لاحظت تلعثم لساني، حاصرتني بالأسئلة الكثيرة، فلم أجد مفرا من مصارحتها بالحقيقة، فصرخت غاضبة:

- **ألم تخجلي من نفسك؟ هل أعمى الانتقام بصيرك؟ ألم تفكري أن عنادك، يمكن أن يدمر سمعة تلك الجريدة، ويؤذي ذلك الرجل في مسيرته المهنية؟!**

تلقيت كلمات أمي القاسية كصفعات متتالية على خذي، فأنبني ضميري، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أحمل الهاتف وأتصل به، ما أن أجاب، حتى انسلت الكلمات متسارعة على لساني، وأنا أخاطبه بخجل: لقد فشلت في المهمة يا أستاذ، أرجوك، سامحني، لن يكون أي تحقيق صحفي في هذه الليلة...

لم أنتظر لحظة واحدة، حتى أسمع رأيه بما قلت، بل أغلقت خط الهاتف بسرعة في وجهه، خائفة من أي ردة فعل يمكن أن تصدر منه، ثم بعد ذلك أطفأت الهاتف بشكل كلي، ثم انزويت كالجبانة بغرفتي.

(11)

كل إنسان منا، يمر من فترات ضعف، يحتاج معها إلى فترة نقاهة طويلة، يجلس فيها مع نفسه، فينتقدها ويعاتبها على أخطائها، حتى يستطيع أن يسامحها، فيحبها من جديد، هذه كانت النصيحة التي قدمتها لي المعالجة النفسية، فسافرت إلى أبعد نقطة عن شبكات النت، في أعلى المناطق الجبلية بشفشاون، حيث تعود جذور أمي، فمكث عندي جدي، باحثة عن السلام الروحي.

هناك، قضيت مدة ثلاثة أشهر في الطبيعة العذراء، بشتائها البارد وثلوجها البيضاء، بين سكانها المسالمين، حتى حل الربيع، مستمعة بانتقال الفصول، وكلما أشتاق للسيدة والسيدة الدرقاوي، أنزل إلى أقرب منطقة تتوفر على تغطية جيدة لشبكة الهاتف الممول، وفي ذلك اليوم، وأنا أتواصل معهما عبر الهاتف، فإذا بأبي يعلمني بأنه سينظم حفلا تأبينيا لروح الراحلة علياء بعد يوم، فعدت وجمعت حقائبي، وركبت أول قطار يقلني لمدينة الدارالبيضاء، وصلت في الصباح التالي، حيث وجدت أبي ينتظرني في محطة القطار.

ما ان حل المساء، حتى انطلق الحفل التأبيني، الذي افتتح بقراءة آيات من الذكر الحكيم، تلته خطبة وعظية من إمام الحي واختتم بالأدعية لروح الفقيدة، كنت وأنا أسمع تلك الأدعية، أذرف الدموع بالغرفة الخاصة بالنساء وأنا أردد بكلمة واحدة: آمين، أمين.

في اليوم الموالي، أخذنا أبي لزيارة الراحلة في بيتها الأبدي، وكانت هذه أصعب خطوة أخطوها في حياتي، خاصة وأنني دائما كنت عاجزة عن مرافقتهما لزيارتها هناك، وهانا الأن، أقف أمامها، وأنظر لقصرها الصغير، تعمد كل من السيدة والسيد الدرقاوي تركي لوحدي معها، لم أستطع السيطرة على مشاعري، فسقطت منهارة باكية أمام قبرها، فإذا بصوت من خلفي يخاطبني بنبرة مريحة للقلب: هذا البيت الموحش هو ملاذنا المريح يا ابنتي، فلا تبكيها، فإنه مجرد فراق مؤقت، نظرت لخلفي، فإذا برجل درويش بجلبابه الأخضر، ولحيته البيضاء، يتكأ على عكازه، يبتعد عني مبتسما وهو يردد: إن ضاعت الحقوق في الدنيا فلن تضيع يوم القيامة... إن ضاعت الحقوق في الدنيا فلن تضيع يوم القيامة إن الله يمهل ولا يهمل، واختفى بعيدا.

كانت تلك العبارات كبلسم لجراحي العميقة، فأحسست بالسلام يتسرب لداخلي، كنت بحاجة لهذا اللقاء منذ وقت طويل، حتى ينطفأ ذلك الغضب المشتعل في قلبي.

نهضت من مكاني، فإذا بيد على كتفي، التفت من جديد لخلفي، فإذا بآخر شخص توقعت أنا أره في هذه اللحظة، يقف شامخا، إنه السيد يحي الزنتي، بجلبابه التقليدي الأبيض، فتذكرت ما فعلت، فخجلت من نفسي، فابتسم ابتسامة مسالمة وهو يخاطبني: لقد كنت أبحث عنك يا أستاذة، وشاء القدر أن نلتقي هنا، يا لها من صدفة عجيبة!

أردت أن أعتذر منه، فمنعني وأضاف بنبرة حزينة: قبل خمس سنوات من الآن، كانت أختي الكبرى أيضا من ضحاياه، كانت جميلة ومثقفة للغاية، تعرفت به، فأحبته، فاستغلها أبشع استغلال، كنت بعيدا عنها، أعمل كإعلامي في قناة أوكرانية، ولم تنتبه أمي للفخ الذي وقعت فيه ابنتها، جرها لعالم الإدمان القبيحة، فضيعت كل إرثها، فصار يتاجر بجسدها كما يشاء، جعلها إيزابيلا جديدة، فانتحرت.

فقلت له بنبرة متأثرة: فليرحمها الله.

بدا متأثرا بمصابه، فأضفت قائلة: اعتذر منك يا أستاذ، لأنني خيبت ظنك بي، كان كل شيء ضدي، لم تكن لدي الجرأة لكي أقف أمامك، وأخبرك بأنني فشلت.

أخرج من جيبه بعض الجرائد ووضعها بين يدي، ثم أشار إلى بالنظر إلى محتواها، كان الخبر المدون وبالخط العريض، على صفحاتها الرئيسية كالتالي" القبض على صحفيين بتهمة الإتجار بالمخدرات وبالبشر" وتحته صورتين لإسماعيل البضاوي ولعلي أرلان، مقيدي اليدين يحيط بهما مجموعة من رجال الشرطة.

لم أصدق ما تراه عيناه، فتحققت من الخبر مرتين، فطرت فرحا وعانقته، عندما وعيت لما أفعل، خجلت من نفسي، فابتعدت عنه، ثم سألته: ومن هذا البطل الذي أوقع به؟

تبسم وقال: إنه أنت، كنت منذ مدة طويلة أراقبك من بعيد، من أول يوم ولجت لذلك الملهى الملعون، وبفضلك توصلت لحقائق كثيرة عنه،

ذهلت من صراحته وقلت: ولكني لم أنتبه لك يوما.

فأجاب: كدت تكشفين أمري في ذلك الصباح المبكر، وأنا أراقبك بسيارتي الرونج روفر... ولولا السيدة الراقية نرجس التي لم تشجعك على الاتصال بالشرطة.

فقاطعته بنبرة حائرة: لقد استغربت من ردة فعلها في ذلك اليوم، وبدأت تنتابني بعض الشكوك حول معرفتها بهوية من يراقبني، كنت أشك بأنه ذلك المجرم، لقد يئست منها.

ففاجأني بالقول: إن السيدة نرجس كانت زميلة قديمة لي بمعهد الصحافة والإعلام بالرباط، قبل أن أهاجر لإيطاليا لتطوير مهارتي في المجال الإعلامي، وكانت أيضا من الصديقات

المقربات لأختي، لهذا فهي لم تتوانى عن تقديم العون لي منذ بداية الرحلة لإرجاع حقي أختي.

اندهشت مما قاله لي للتو، فسألت: ولماذا لم تخبرني السيدة نرجس بذلك، مادام لدينا نفس الهدف؟!

فقال: أنا من طلبت منها ذلك، حتى يبقى ذلك المجرم منشغلا بك، ولا ينكشف أمري.

فسألت بنبرة فضولية: وكيف أوقعت به؟

فقال: بعد تلك المكالمة الأخيرة لك، اقترحت علي أنستانزيا أن تكون الطعم الذي يوقع ذلك المجرم، وأقنعت تلك الفتاة البيلاروسية العاملة معه المدعوة ريتا بأن تساعدنا في خطتنا، فاقترحتها كعاملة جديدة في الملهى لعلي أرلان، وما أن رآها إسماعيل البضاوي حتى سحر بجمالها واقترح عليها أن تصبح عشيقته، فتعرفت على كثير من أسراره في وقت مبكر، وقبل أن يكتشف أمرها أوقعنا به متلبسا في المطار هو ذلك المجرم المدعو أرلان وبحوزتهما كمية كبيرة من المخدرات السامة.

فسألت: ماذا عن قضية الاتجار بالبشر؟

قال بتحسر: ستقدم ريتا إفادتها بشأن مقتل صديقتها الروسية قبل شهور قبل أن ترحل لبلدها بيلاروسيا، ولو أن هذه التهمة من الصعب إثباتها في غياب الأدلة الكافية كما أن هذا الموضوع كبير جدا وتديره شبكة دولية...المهم هو أنهما لن يخرجان من السجن قبل خمس عشر أو عشرين سنة، كما سيتم إقفال ذلك الملهى الملعون.

لن أنكر أن أحاسيس الغيرة انتابني وهو يتحدث عن تلك الصهباء بذلك الإعجاب، لكن في نفس الوقت لن أنسى أنها من ضحت بنفسها من أجل تحقيق العدالة لأختي، وساهمت في إبعاد فتيات اخريات من السقوط في شباك هذا المجرم السادي.

في تلك اللحظة، تذكرت ذلك الرجل الدرويش، وتمنيت لو التقيته مرة أخرى حتى أخبره أن العدالة الإلهية قد تحققت في الأرض قبل السماء.

لأول مرة أحس بالسلام الداخلي الذي افتقدتها بعد شهور طويلة من المعاناة والألم، فشكرت السيد يحي الزنتي على كل شيء، فابتسم ابتسامة ودية، وقبل أن أبتعد عنه بخطوتين، فاجأني بقوله: ما زلت أنتظر ردك بخصوص العقد.

نظرت إليه بعمق، أحاول أن أفهم ما يجول في فكر هذا الرجل الغامض، ثم قلت: أظن أنه لم يعد هنا من داع لهذا العقد.

فأردف موضحا: أنا بأمس الحاجة إلى خدمات صحفية متميزة مثلك في فريقي الصحفي... ومن دون أن أفكر، قلت له: لا أظن أنها ستكون مثل الخدمات التي تقدمها السيدة أنستانزيا. فبرزت في عينيه تعابير الانتصار، كأنه كان ينتظر مني هذا الرد. ثم رحل بعيدا.

بعد شهر، عدت لعالمي التي لا يمكن أن أرى نفسي بعيدا عنه، هذه المرة من خلال تأسيس مجلة إلكترونية تعنى بكل شيء يخص عالم المرأة، فسميتها " عالم السندريلا" كانت التمويل من أحد المستثمرين الذين تعرفه السيدة نرجس، لم يشأ القدر أن ألتقيه لانشغالاته الكثيرة في العالم ووعدتني أن تقدمه لي في أقرب فرصة ممكنة، لم ألح أنا أيضا على ذلك، فكانت نرجس هي تلك الوسيط بين مجلتنا وبين ذلك المستثمر.

وبعد سنة من العمل المتواصل، حققت المجلة شهرة واسعة في بلدنا والعالم العربي، وصار عدد موظفينا حوالي الثلاثين فردا، فاقترحت الإحتفال بالذكرى السنوية الأولى للمجلة في منزل عائلتي.

كان كل شيء رائعا في تلك الأمسية، ارتديت أجمل قفطان مغربي لدي، وغطيت شعري بحجاب من الحرير الفاخر، حضره كل الطاقم العامل بالمجلة، ولم تحلو السهرة إلا بطرب الفرقة الأندلسية النسوية، وبينما أتذوق إحدى الحلويات التقليدية المغربية، ظهرت أمي خلفي ونظرات الفخر بعينيها، فأعدت قطعة الحلوى للطبق الكريستالي، ثم تعانقنا وقالت لي بتأثر: إنني فخورة جدا بك أيتها السندريلا.

فضحكت حينئذ عندما تذكرت حذاء السندريلا السحري وقلت لها: أنت عبقرية يا أمي حتى بألغازك، نحن في زمن صعب، وعلى كل واحدة منا أن تتسلح بالعلم والحكمة وتؤمن بقوتها وتكافح حتى تحقق ذاتها، وعندما تنجح في ذلك تكون قد وجدت الحذاء السحري، ويمكن لأي واحدة منا ان تصبح سندريلا هذا الزمن الذي نعيشه.

حركت أمي رأسها بإيماءة رضا، ثم أشارت إلى بالنظر إلى ذلك الزائر الذي يصافح أبي بحرارة وهي تقول والبسمة لا تفارق وجهها المضيء: ولو كان الحذاء بكعب عال، فسيكون رائعا وجذابا.

انبهرت بقوة عند تحققي من هويته، كان آخر زائر توقعته في هذا المساء، ولكن مع ذلك، أحسست بسعادة رهيبة، كان بكامل اناقته، اقترب مني، ثم تأملني بشكل جريء، وأردف قائلا بنبرته الفخمة: مبارك لك يا فائزة، تستحقين كل هذا النجاح الذي وصلت إليه.

ابتسمت له بخجل، وقبل أن أشكره، ظهرت أمامنا السيدة نرجس، صافحته بحرارة به وهي تقول لي: هذا هو المستثمر الذي أمن بمشروعنا حتى أصبح واقعا جميلا.

وبعد أن فجرت تلك القنبلة، انسحبت تاركة إيانا لوحدنا، كانت الدهشة تنبعت من عيناي، وملايين الأفكار تدور في رأسي حول نوايا هذا الرجل الذي دائما يفاجئني، ظل صامتا للحظات يحدق بي بإعجاب، أحسست بالخجل وبمشاعر من نوع آخر أكنها لهذا الغريب، فخشيت على نفسي منه، فحطت ذلك الصمت، وسألته بحسم: ما الذي تريده مني؟ لماذا تفعل كل هذا معي؟

فقال بنبرة ناعمة: لدي عرض آخر لك، إنه يتعلق بعقد.....

قبل أن ينهي حديثه، ضحكت بصوت منخفض وقلت له: إنني أعمل معك، و المجلة تحت رحمتك، أليس هذا أهم من أي عقد آخر يمكن أن يربطنا؟

فقاطعني قائلا: هناك الأهم منه.

ابتسمت وقلت له: وما نوع هذا العقد؟

فقال: إنه ذلك العقد الأبدي الذي يربط الرجل بالمرأة.

في تلك اللحظة الآسرة لكل فتاة، انعقد لساني لدقائق، مما جعل الرجل يسأل من جديد بنبرة حاسمة: ما رأيك يا فائزة؟

كان أجمل عرض تلقيته في هذا المساء، لم أكن بحاجة للتفكير لساعات طويلة، كنت أحس بأن هناك شيئا ما يجذبني إلى هذا الرجل، لكن في نفس الوقت، كنت خائفة، وأعيش في صراع بين قلبي وعقلي، مترددة في الوجهة التي سأختار، حتى بدا لي أن السئم بدأ يتسرب لوجهه، هنا، أحسست بالخطر من أن أفقده بشكل أبدي، وبنبرة متهورة سألته: وهل استشرت مع السيدة أنستانزيا قبل أن تأتي إلى هنا؟

عاد لون الحياة إلى وجهه، ثم قال: إنها مجرد زميلة، كما أنها عادت قبل شهر لخطيبها السابق ورحلت معه لبيلاروسيا، حيث ستعمل معه هناك في إحدى قنوات التلفزيون التي يملكها...ماذا قلت الآن؟

ابتسمت بخجل وأنا أهز برأسي بالموافقة، مد يده إلي، فلم أتردد بوضع يدي في يده، لأوقع على أهم عقد في حياتي، كان الحكم فيها هذه المرة للقلب لا العقل.

النهاية